

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY  
3 8534 01072 8131

108  
137  
B  
19  
A2



01-B3 642

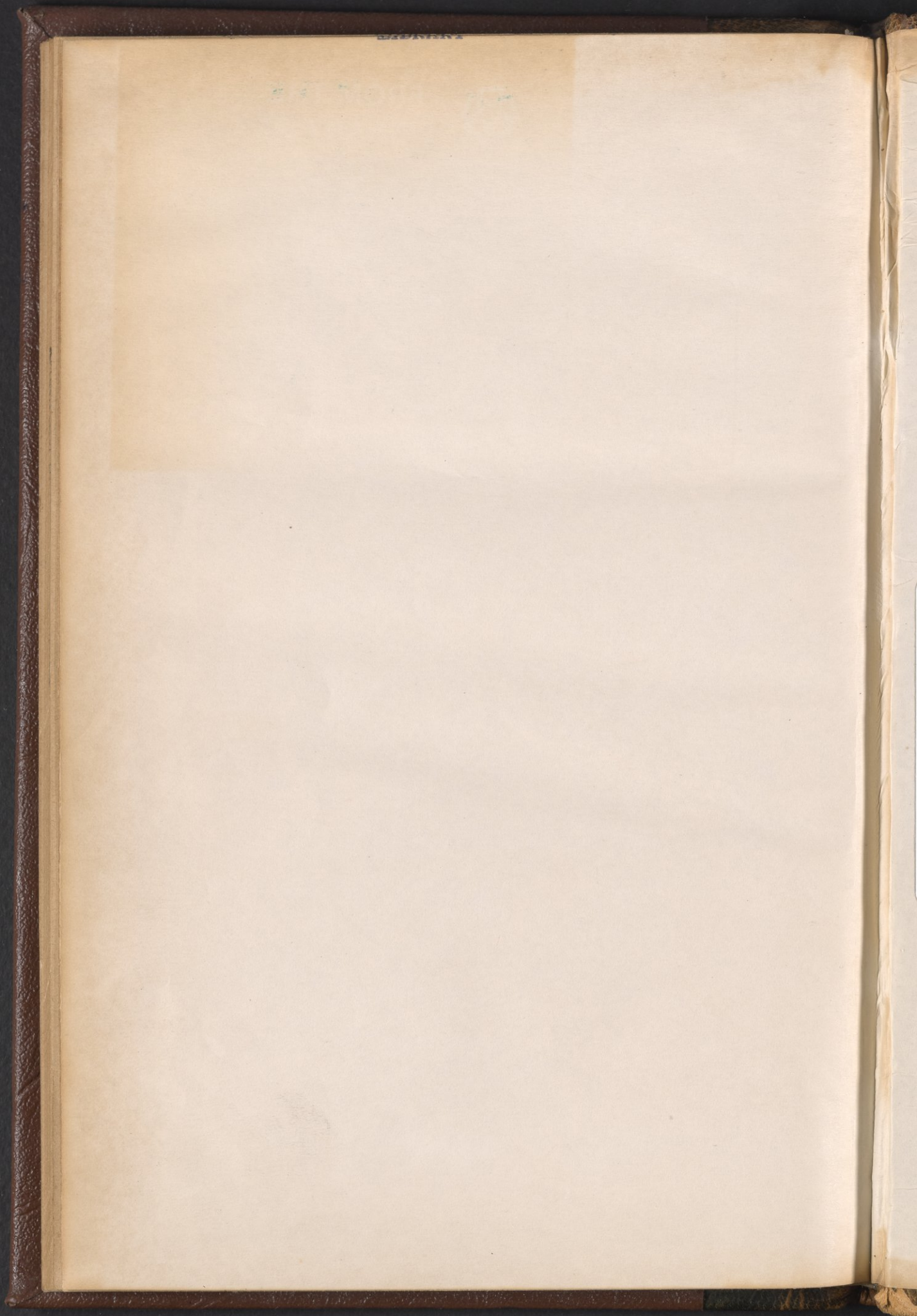
Part 27-6-01



FROM THE  
LIBRARY OF  
THE  
AMERICAN UNIVERSITY  
IN  
CAIRO

من مكتبة  
الجامعة الامريكية بالقاهرة

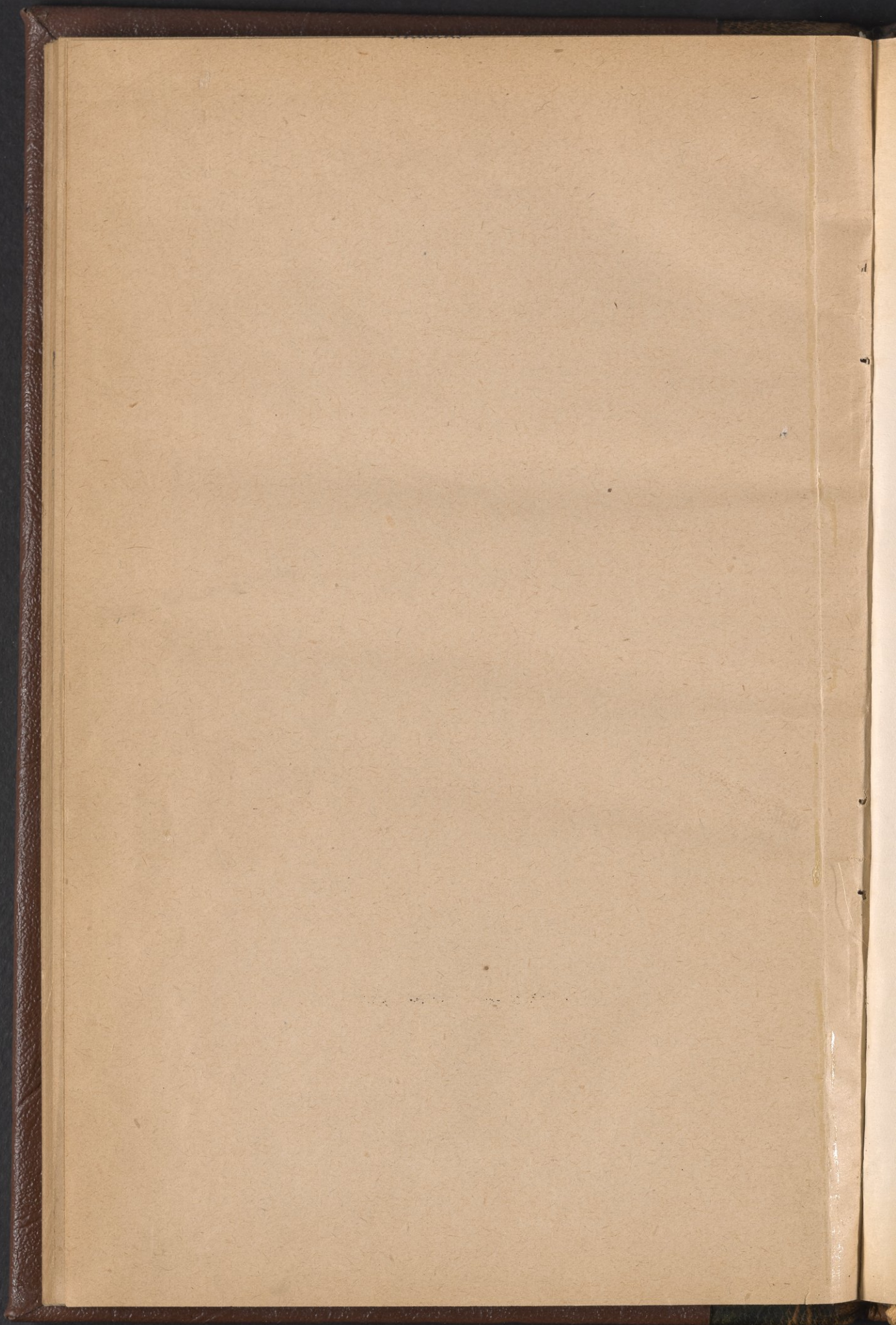














جميع الحقوق محفوظة « لدار الحكمة »  
بيروت



DS  
37.7  
B4X  
1955  
1

# المُشَارُونَ فِي التَّارِيخِ

تأليف دار الحكمة

بإشراف

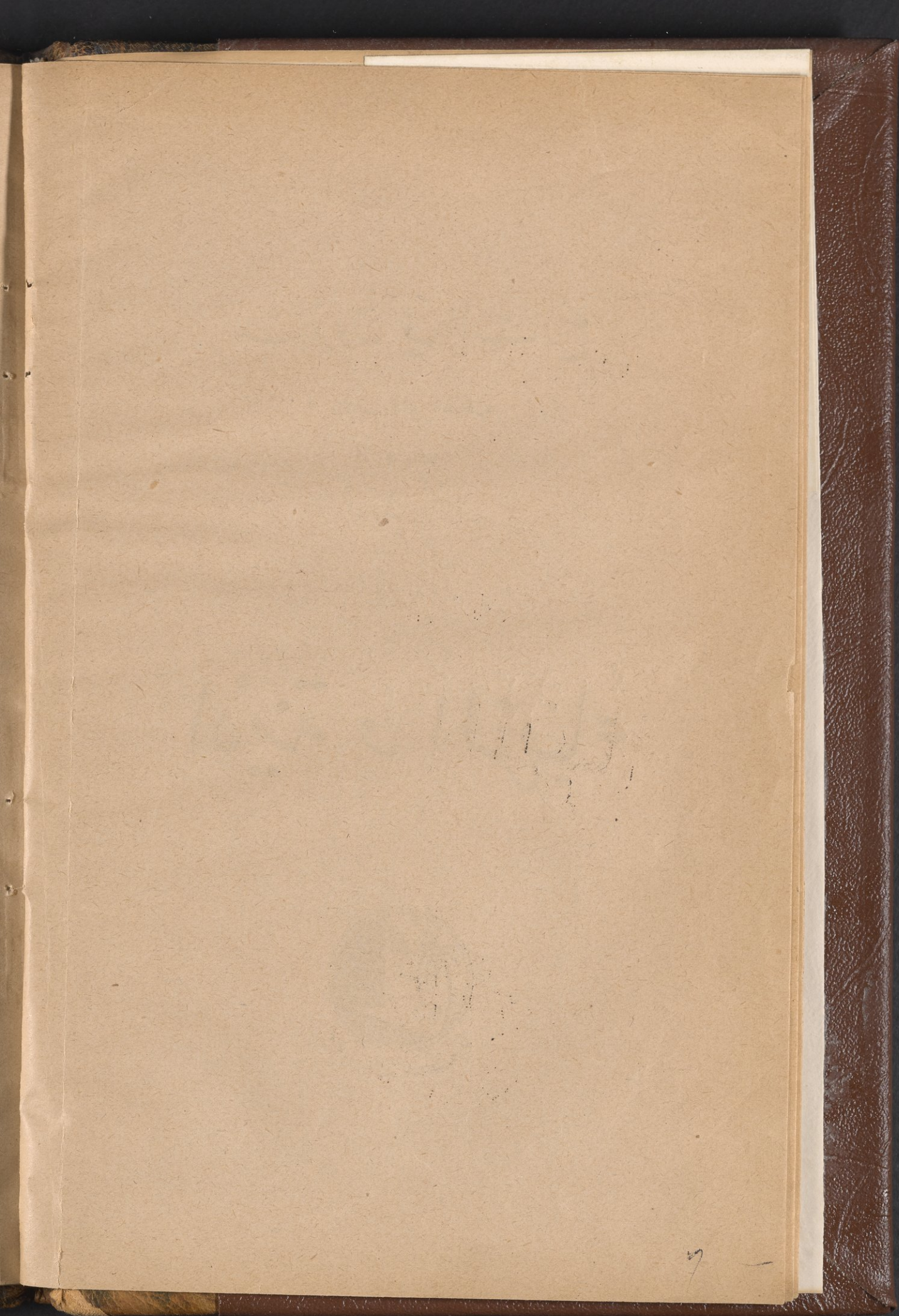
عبد بنصر الدين

— الجزء الأول —

## أَدِينَةُ وَ الزَّهْبَاءُ









## مقدمة

في هذه الايام ، التي يقف فيها التاريخ العربي موقف السيل المتحير ، فقد القدرة الواعية على اختيار وجهته ، للالتقاء بغيره ، في مجرى التاريخ العام ، لامم العالم كافة ؛ يتلفت صانعو التاريخ في دنيا الناس ، الى بلاد العرب ؛ كأنما هم يستبطنون الركب ، في هذه الاصقاع من الدنيا ، ليستحوه على الانطلاق . وتتشوف انظار صانعي التاريخ هؤلاء ، الى الافاق العربية ، تبحث عن صانعي التاريخ عندنا . . على القمم ، فيعجزهم المثل يغرق في الظلمة ؛ وتهم الحية بان تصرفهم عن هذا العناء ، الى منصرفين ، يختارون احدهما ، حكماً ، في غير اسف ولا مبالاة ، إلا من عناء منهم ، امر هذه الانسانية كلها ، وتحليقها - على اختلاف مواطنها - في اجواء الصعود نحو الكمال الحضاري الاسمي ؛ وهم قليل .

هذان المنصرfan هما ، اولاً : اعتبار هذه الافاق ،



داخلة في ظلمة العدم ؛ لا يعني التاريخ الانساني منها ،  
من شيء . ثانياً : - وهذا اعظم ايلاما في النفوس ، وابين  
خزيها - ان يتولوا هم صنع التاريخ عندنا ... نحن صانعي  
التاريخ الانساني ، في حقبة من الزمن مرت .  
في هذه الايام القاسية المُمضة ، يهيب بنا ، في غف ،  
احساس عارم عميق ، ان نتلمس من جديد ، في مطاوي  
التاريخ ، ولا سيما تاريخنا الضخم ؛ وفي اعالي القمم --  
نحتلها علماً وعقلاً وتفكيراً وحضارة وجبروتاً -- ، أمم اليوم  
الحية المفضلة ، ما في الوجود ، وجود هذه الامم على الاقل ،  
من عناصر تهدم لتبني . وتحطم لتنشئ . وتنهض بالناس  
الى فوق ، لتبدع منهم جبابرة عمل خلاق ، يضعون  
التاريخ ؛ تاريخ الانسان الخالد بنوعه المصقّى ، في انوار  
القمم ؛ فليس تاريخاً ، ما يصنع في ظلمة المستنقعات ...  
فيلتمع امام ابصارنا وبصائرنا ، على راس هذه العناصر ،  
عنصر طبيعي انساني اصيل عميق ، هو عنصر الثورة !  
الثورة في الطبيعة ، التي كان الوجود كله ، لولاها ، يكون  
مستنقعاً ... والثورة في العقل الكلي ، والنفس الكلية  
الانسانية ، التي لولاها ، لكان هؤلاء الناس الذين ينعمون



بقي علم وفكر وعدل « وحضارة ، ورفاهية ، ما يزالون  
جماعة مغاور وكهوف ....

ولسنا نقصر ، من معاني « الثورة » على المعنى الذي  
يتجسد لها ، اول ما يتجسد ، في مكان الوعي من النفوس ،  
ناراً وحديداً ورصاصاً و .. قتابل ذرية ؛ وانما نريد منها  
- قبل غيره من المعاني - المعنى الاساسي الاصيل : ثورة  
العقل والفكر والنفوس ؛ هذا المعنى الذي لا تنطلق ثورة  
السلاح نفسها ، وتوفي على الغاية ، ان لم يكن هو ، اسسها  
وباعثها . وان هي انطلقت ، فان جدواها لمنقطة ، حتماً ،  
دون الغاية . وذاهبة ، حكماً ، درج الريح .

هذا هو المنبتق العميق الذي فجر منه وقوف التاريخ  
العربي اليوم ، موقف السيل المتحير ، فكرة وضع هذا  
الكتاب :

### - الثائرون في التاريخ -

ولقد كنا نؤمن بهذا العنصر ، من قبل ، فجاء يمكن  
لايماننا به ، ويغذيه ، ويصقله ويبلوره ويزيد فيه ، واقع  
الناس في دنيا الناس ؛ وواقعا نحن هذا ، المظلم التافه ،



الذي حملنا على تلمس عناصر المهدم والبناء . والتحطيم  
والانشاء . والانطلاق من المستنقعات الى القمم ، يُصنع  
من فوق ما استوى من اعاليها الضاربة في السماء ، تاريخ  
الانسانية ؛ يصاعد بهذه الانسانية ، في علم ونظام وحرارة ،  
وفي نفحة من لدن السماء ، كما يصاعد النور .

وانه ليُعجز المعنين في الجنوح الى المستنقعات ، سكونا الى  
رخاوة العيش ، واخلاداً الى ما اراد شاعرنا الكبير «الخطيئة»  
الزبرقان بن بدر ، المثير المتنعم المشهور ، - على ان يُخلد  
اليه ، حينما خاطبه قائلاً :

دع المكام لا ترحل لبغيتها واقعد فانك انت الطاعم الكاسي  
انه ليُعجز هؤلاء - وليس في نفوسهم من معنى القدرة  
الا كل ما نرى فيه ، نحن ، ذل الشهوات ، وضعة القعود - انه  
ليُعجزهم حملنا على الكفر بهذا العنصر ، او التنكر له ، او النزول  
الى مصاف الذين يضيقون بما فيه من رجولة عنيفة ، ومن خير ،  
ومن صلاح ، ويكادون يموتون ذعراً مما فيه ، من عظمة  
وجبروت .

ان هذا العنصر ، لم يستقم في التاريخ امر ، الاّ به .  
فالثائرون في التاريخ ، هم وحدهم علة انقشاع الظلمة في



كل ليل ، ومصدر سطوع النور في كل فجر . وهم الذين  
كانوا وما يزالون يصححون اخطاء الوجود ، في سيره  
الابدي ؛ ويردون الضالين الى سواء السبيل . ويحملون  
المارقين من شرقة السماء ، على الصراط . وهم الذين يحدّون  
من سلطان الاقوياء الحاكمين ، وطغيات الطغاة العتاة ،  
ويقيمون الحق ، او يموتون دونه . بهم ينتصف المظلوم ،  
ويستغني الفقير ، ويستقوي الضعيف ، ويستنير الجاهل ، ويتحرر  
المستعبدون سياسياً واجتماعياً ؛ وبهم يبطل فعل الرقى  
والتعاويد والدجل ، وتنسخ المذاهب الاجتماعية الفاسدة ،  
وتمحى السنن والتقاليد الملتوية ، يصطنعها ، لمصالحهم ، فريق  
الضالين المضللين ، من اهل النفوذ والامر ؛ وتزول من  
الاذهان فكرة الفوارق المزوّرة بين عباد الله ، فيستوون  
احراراً ، متساوين امام الشريعة وامام القانون . فالوجود ،  
منذ ان وجد الوجود ، حتى هذا اليوم ، مدين للتأثرين ،  
في كل خطوة من خطواته نحو الخير والصلاح ، وفي كل  
انطلاقة من انطلاقاته ، من واقع رذّل الى واقع فاضل ،  
ومن واقع فاضل الى واقع افضل . لا يتنافى مع  
هذه الحقيقة ، ولا يقلل من شأنها ، ما لا نزال نراه من



مكان للرديلة في هذا الوجود ، ومن اثر للظلم فيه ، والجهل والاستعباد والاستهتار ، والدجل والنفاق ، والاستغلال المجرم الدنيء . فلولا ثورة الثائرين في التاريخ ، لكانت هذه البثور القذرة السامة في وجه الوجود ، وهذه الامراض الكريهة الفتاكة النتني ، في جسم الكون ، وهذه الظلمة المحلولة في ارجائه ، ابعد ايغالاً ، واوسع انتشاراً ، وادهى عاقبة .

ولكن هؤلاء الثائرين ، الذين يصح فيهم القول : انهم ملح الحياة ، ومحور تطهرها ، ومدار تسامها المطرد - السريع او البطيء - عصرأ بعد عصر ، ودوراً بعد دور ، يجلوهم لنا التاريخ في مختلف العصور والادوار ، في هالات من سناء النور وجلال الايمان ، يرتفعان بهم عن مطارح المادة ومشاكل الحطام ، تستبد بالمجتمع الذي فيه يعيشون ، فما يعينهم من امر نفوسهم من شيء ، سوى ان يُقنوا هذه النفوس ، في سبيل رفع هذا المجتمع الى القمة ، حيث تتلاقى مجتمعات هذا الكون ، لتحقيق مشيئة الكائن الاعظم ، في الوجود الكلي العام : حرية كريمة عاملة محسنة ، وعدلاً كاملاً شاملاً ، ومعرفة خيرة عميقة ، ونعياً صافياً مقياً ،



يصمدون من اجل هذا كله ، لشتى انواع الاضطهاد والعذاب  
والحرمان ، في غير اكتراث ولا مبالاة ، بل وفي اشراقة  
نفس ، ولذة روح ، ثم ينتهون الى التراب ، بعد ان تكون  
اثقلتهم الكوارث ، وحطم اعصابهم وعظامهم ، الصمود للعذاب  
والاضطهاد والحرمان ، ما شأنهم ؟! ما شأن هؤلاء الثائرين ؟!  
ومن اين لهم هذه القدرة ، وهذا الشغف بالحق ، لوجه الحق ؟!!  
اننا رغم هذه الاكتشافات العلمية المستعظمة ،  
في هذه الحقبة الاخيرة من القرن العشرين ، هذه الاكتشافات  
الاعاجيب حقاً ، والتي يجنح بها بعض الناس ، الى التدليل  
على صحة انكارهم وجود القوة العظمى الخالقة ، التي نسميها الله ؛  
جل ، وعز ، وعلا ، اننا رغم هذه الاكتشافات ، نقول ،  
ما نزال غير قادرين على ان لا نؤمن بهذه القوة العظمى الخالقة :  
الله . بل لعل هذه الاكتشافات هي نفسها ، تقوم في  
عقلنا ، مقام توكيد قاطع لوجود الله ، ومبعث حرارة  
جديدة للايمان به ، وبقدرته غير المحدودة باي حد على  
الاطلاق . ومن هنا ، من هذه النظرة الايمانية بوجود الله  
وقدرته وحكمته وعدله وكرمه ورحمته ، نطل على الافاق  
العميقة ، لنفوس الثائرين ؛ فتبدو لنا في نور هذا الايمان



حقيقة شأنهم العظيم ، وماهية نفوسهم العلوية الصافية .  
 الثورة ؛ ان تتمرد على قانون ، او عرف ، او تقليد  
 او تدبير ، وان تعلن كفرانك به ، وعصيانك له ، وان  
 تعمل لتستبدل به سواه ؛ صالحاً وخيراً ؛ ويتم ذلك باللسان  
 والقلم ، كما يتم بالحديد والنار . وهذا معنى الحديث « من  
 رأى منكم منكراً فليقومه بيده ، فان لم يستطع ، فليسلطه  
 فان لم يستطع فليقلبه ، وذلك اضعف الايمان » فشرط الثورة  
 التي نمجدها هكذا ، ان تكون ثورة على قانون . او عرف .  
 او تقليد . او تدبير ، فيه منكر . وللمنكر وجوه . فالظلم  
 منكر . والاستعباد منكر . والاستغلال « ١ » منكر . والجهل  
 منكر . والسلب ، خاصة السلب بقانون منكر . والفساد والافساد  
 منكر . وازدراء الانسان الانسان منكر . وسلب الانسان حرية  
 الانسان ، وحقه ، منكر . والاقتتال لمجرد اختلاف العقيدة ،  
 والمكانة ، والجنس ، واللون ، منكر . فالثائرون الذين اشرنا الى انهم ،  
 ملح الحياة ومحور تطهيرها ، ومدار تساميتها المطرد ، هم اولئك  
 الذين يتمردون على هذه القوانين . والعرف . والتقاليد .  
 والتدابير . ويحاولون بالثورة ان يقضوا عليها ؛ ويقيموا مكانها

(١) نفي الاستغلال لتحقيق مصلحة ذاتية او شهوة او هوى .



ما هو صالح وخير ، ومكان الصالح والخير ، ما هو خير واصلح ؛  
وفي هذا ما فيه من خروج على المؤلف ، وتحدٍ لارباب  
الحكم والسلطان ، مما لا تقوى على تحمله اعصابهم ؛ وتأبى  
ان تستسيغه نفوسهم ؛ ويرون فيه استخفافاً بشأنهم ، وخطراً  
مهديداً بزوال سلطانهم . وكثيراً ما ترى فيه الجماهير - وهو  
يُعمل في الدرجة الاولى من اجلهم - نوعاً من انواع الحماسة  
والجنون ، وبدعاً من البدع ، التي يستحق اصحابها النبذ  
والاضطهاد والعذاب والموت !! وهكذا يغدو الثائرون عرضة  
للبغضاء والحقد والمقاومة ، من لدن الحاكمين ، واهل النفوذ  
والسلطان ، الذين يظلمون الناس ، اي الجماهير ، ويستبدون  
بهم ، ويتحكمون بمصائرهم ، ويسلبونهم - وحياناً بقانون -  
حرياتهم ، وحقوقهم ، حتى وما يتبلغون به ؛ وعرضة للبغض  
والحقد والازدراء ايضاً ، من لدن الجماهير نفسها ، التي ترى  
فيهم - بجهلها - حمقى ومجانين واهل بدع ! ولا عبرة  
بالقلة في هذه الجماهير ، توليهم محبتها واحترامها وثقتها ، فانها  
لا يبلغ من قدرها ان تستعجل خيراً يريدونه لها ؛ او ان  
تدفع شراً يريدونه بهم . ومن هنا ، كسف الظلمة تساقط  
على الثائرين ، وقارعات الكوارث ، تسد عليهم المنافذ الى



الصراط ، وتُحكم في وجوههم اغلاق المعارج الى فوق ؛  
فتمور نفوسهم بالنقمة الكامنة في اعماقهم . ويفجر الايمان  
بالحق وبالخير ، في هذه النفوس ، ينبوع القدرة الكامن ،  
على العروج ، فتفتح لهم ابواب السماء ، يتلقاهم منها وجه  
الحق ، وجه الخير ، وجه القدرة المطلقة الخالقة : وجه الله .  
فتتضاءل امام عيونهم ، وتحقر ، قوى البشر كلها . كلها  
على الاطلاق ، في مختلف صورها واشكالها والوانها ؛ ويحققون  
في تلك اللحظة ذاتهم ، ويؤكدونها جزءاً من ذات الله ،  
فينطلقون في نور الله وفي قوته وفي مشيئته ، يستمرئون  
طعم الحشونة ، والشدة ، والحرمان ، والاضطهاد ، والعذاب ؛  
ويسمون فوق الظالمين والمظلومين ، والمترفين والمحرومين ،  
والاقوياء والضعفاء ، والاخيار والاشرار ؛ من اجل ما يجب  
ان يشمل هؤلاء جميعهم : من اجل الحرية الكريمة العاقلة  
المحسنة ، والعدل الكامل الشامل . والمعرفة الحيرة العميقة ،  
والنعيم الصافي المقيم . من اجل الحق . فالحق ، يطوي في  
رحابه هذه الحقائق كلها ، الواجبة الوجود . وقد يكون  
في سابق علم الله — بل انه كذلك — كما نعتقد ، ان  
الحق اسمى واعظم واجل وانفذ اشعاعاً ، من ان تقوى



عيون الناس كلهم ، على البقاء ابدًا منفتحة عليه ، او ان  
يكون لها القدرة على تثبيت النظر اليه طويلاً ؛ وانها فعلاً ،  
لمنزلة لا يسمو اليها وينعم بها ، سوى فريق متخير مصطفى  
من عباد الله ، راضوا نفوسهم على هذا العظيم ، الذي لا  
يتعاضده شيء ، فاسلس لهم ، بمقدار ، طبعاً ، وبمشيئة من الله  
ورحمته ، فصاروا بين يدي الله سهاماً ، يطلقها في صدر الباطل  
والظلم والطغيان والاستكبار . وموجات من نور يبعثها الحين  
بعد الحين ، فتجلو الظلمات وتدمج نور الارض بانوار السماء .  
هذا الفريق المتخير المصطفى في الارض ، هم الثائرون .  
والثائرون هؤلاء في التاريخ ، منازل ، ودرجات ، تماماً ، مثل  
اهل الخير ، على اختلاف وجوه الخير ومقاديره ؛ والذين  
يعنوننا منهم الآن ، هم الثائرون العرب في التاريخ ، منذ  
ابعد الازمنة ، حتى انقطاع اسباب الاتصال ، بين اهل الخير  
فينا ، نحن العرب ، وبين السماء ؛ اي حتى عهد انحدارنا ، جهلاً  
وهونا ، الى الدرجة الاخيرة من درجات سلم الايمان ؛ درجة  
تقويم المنكر بالقلب ، دون اليد ودون اللسان . الدرجة التي  
وقف فيها التاريخ العربي موقف السيل المتحير ، ما يدري  
ولا يملك القدرة ، على ان يدري ، الى اين يتحرك ، وفي



اي اتجاه يسير ، لان صانعي التاريخ عند العرب ، طوتهم  
أيدي الكون ، سنة الكون في اهل الارض ، ولم تتفج  
السماء من جديد ، هؤلاء العرب ، بعد ان تقطعت اسباب  
الاتصال ، بينهم وبين السماء ، بمن يصنع التاريخ .

وقد اقتضانا البحث عن « الثائرين في التاريخ » عناء  
غير يسير ، ووقتاً غير قصير ، ذلك ان المؤرخين العرب ، لم  
يؤرخوا لاحد من العرب ، على اعتبار انه ثائر ، واقل منهم  
عناية في الامر ، كان المؤرخون الاجانب ؛ فكان علينا ان  
نبحث اولاً عن الاعلام عندنا ، من هم ؟! منذ ان عُرف  
التاريخ حتى اليوم ، فنسجل اسماءهم ، ثم نغربل هذه  
الاسماء ، استناداً الى ما تزال الذاكرة تعيه من امرهم ،  
ثم نعود الى مراجعة كتب التاريخ من عربية واجنبية ، الكتب  
المفروضة فيها ، ان تكون أرخت هؤلاء الاعلام ، للتثبت ؛  
وهي كتب كثيرة متفرقة ؛ فيضطرنا البحث والاستقراء  
الى مطالعة ما كتب عن كل علم من هؤلاء الاعلام ، في  
عشرة مجلدات احياناً ، واكثر من ذلك احياناً ، او اقل . وكثيراً  
ما يُغفل المؤرخون ذكر السنة التي وُلد فيها هذا العَلَم  
بوضوح ، على انهم قليلاً ما يغفلون ذكر سنة الوفاة . وهذا



أيضاً ، اقتضانا ، شيئاً من العناية ، بالنظر الى القاعدة التي وضعناها ،  
لتجنب التقديم والتأخير . ولم يكن العناية يسيراً في غربلة  
هؤلاء الاعلام ، و اقرار صفة **الثائر** ، للواحد منهم ، دون  
الآخر ، ثم ترتيبهم حسب منازلهم ، من العصور والادوار .  
وهذا الترتيب ، الذي اطمأنا اليه ، يحول دون ترتيبنا اياهم ، حسب  
منازلهم من القيمة ، والخطر ، ومقدار الاثر الذي تركوه  
في المجتمع العربي ، البدائي ، و... المعقد ؛ وفي صنع التاريخ  
ومبلغ ما نفجوه به ، من عناصر للحق والعدل والمعرفة  
والفضيلة . فانهم في هذا النطاق متفاوتو المنازل والدرجات ،  
منهم من يمكن القول فيهم ، انهم بلغوا القمة ، ومنهم من  
هم على درجات منها ، وآخرون دون ذلك . وامام اهل  
المعرفة والرأي ، من القراء المحترمين ، مجال واسع ، لاعمال الفكر ،  
لاعطائهم « العلامات » التي يستحقونها في نظرهم ، من هذه  
الناحية ... وتوزيعهم على الارقام ، او توزيع الارقام  
عليهم ، هكذا : ١-٢-٣-٤ الخ ... اي الاول الثاني الثالث  
الرابع ... الخ ... بعد ان يأتوا على السلسلة كلها ، من  
الفبا الى يائها .

اما الترتيب التاريخي ، فقد اثبت لنا البحث والتنقيب



ما قد يبدو غريباً ، وهو ان مركز الصدارة الاول فيه ،  
لملك المملكة العربية التدمرية ، أذينة الاول . فأذينة الاول  
هذا ، هو اول تأثر في التاريخ عندنا . وتليه الملكة الزباء  
زنوبية . فزيد بن عمرو ، فجندب بن جنادة ، اي ابو ذر  
الغفاري ، الى آخر السلسلة . وابو ذر من اضخمهم ، ومن  
انبل الذين استووا على القمة ، واتصلوا بنور السماوات  
والارض .

ان عدد التأثيرين في التاريخ العربي ، ليس بقليل . وسنضع  
نبأهم بين يدي القاريء في اجزاء متتالية ، بعد ان غدت  
اعمالهم محصية بين ايدينا ، منذ اواسط القرن الثالث المسيحي  
حتى اواسط القرن العشرين هذا ، الذي نعيش فيه ، على  
هامش التاريخ ... ولسنا في حاجة الى القول اننا نرمي ،  
اول ما نرمي ، بعملنا هذا ، الذي فكرنا فيه طويلاً ،  
واعددنا لتحقيقه كثيراً ، منفردين ومجتمعين ، الى بعث هذه  
الروح العربية الاصلية ، التي كانت تستطيع ان تخلق في العرب  
ناساً ، يستطيعون ان يحدقوا في وجه السماء ، فتنتفتح لهم  
ابوابها ، ويطل عليهم منها وجه الحق ، فما يغضون اعينهم ،  
ولا يغضون من ابصارهم ، لما في نفوسهم من ايمان بهذا



الحق ، ومن شغف به ، يدمر بالقدره على الاخذ باسباب  
الاتصال بنوره ، والافاضة من هذا النور ، على امتهم ،  
يغيرها بالعدل ويغيرها بالسمو ، ويبعثها مهديا في الارض ،  
هادية ، والى توكيد ان العنصر الاول ، من العناصر التي  
تهدم لتبني . وتحطم لتنشيء . وتنهض بالناس الى فوق ،  
لتبدع منهم جبايرة عمل خلاّق ، يصنعون التاريخ ، تاريخ  
الانسان الخالد ، بنوعه المصفى ، في انوار القيم ، ان العنصر  
الاول من هذه العناصر ، كان وما يزال : الثورة .

الثورة على المنكر اينما وجد ، في قانون او عرف او  
تقليد او تديير او عمل ، في كل زمان ومكان .

وانه ليضع « دار الحكمة » في موضع عزيز من  
الاغتياب ، والاطمئنان الى صالح الانطلاق ، في سبيل  
الوطن العربي ، ان تكون فكرت في هذا العمل واخذت  
في تحقيقه . مبتدئة في هذا الجزء بالملك اذينة الاول ؛  
الثائر الاول في التاريخ العربي ، وبالثائر الثاني : الملك  
الزباء : زنوبية . وان يكون في مقام الفاتحة من رسالتها :  
كتاب « الثائرون في التاريخ » هذا

ان « دار الحكمة » الممثلة الآن في علي ناصر الدين . ومحمود



عبد الصمد ، وعلي ابي حيدر ، الذين يضعون متعاونين هذه  
السلسلة من كتب « الثأرون في التاريخ » يشكرون  
للذين اكبروا الموضوع - حينما تحدثوا عنه - واعجبوا به ،  
وشجعوا على كتابته ، معاوتهم الثمينة ، ويرجون من الله  
ان يكونوا عند ثقتهم بهم ، في ان لا تنشر « دار الحكمة »  
من الكتب ، موضوعة كانت او مترجمة ، ومن وضعها  
هي كانت وترجمتها ، ام من وضع غيرها من المؤلفين وترجمة  
المترجمين ، الا كل ما يمكن ان ينتفع به العقل العربي  
والفكر العربي والخلق العربي . ويساعد ، في كثير او  
قليل ، على انطلاق جدي منظم ، نحو الخير ، نحو... القمة

بيروت تموز سنة ١٩٥٥

« دار الحكمة »



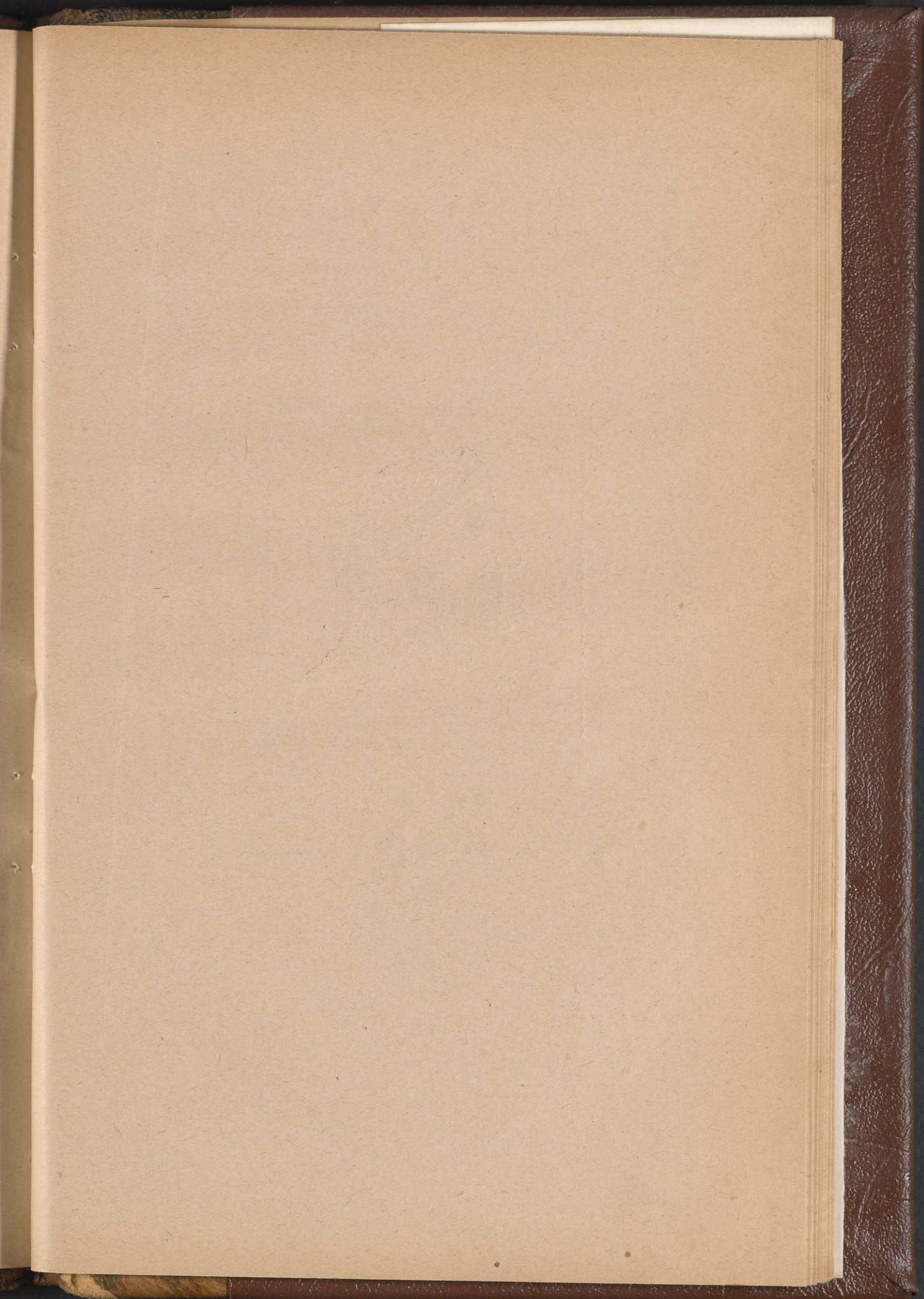




# أَدِينَةُ

- الاول -







## موقع تدمير الجغرافي والتجاري

واحة نخصة ، في الطرف الشمالي من الصحراء العربية ،  
على هيئة نجمة ، في قلب الدائرة ، التي يحتل بعضها الهلال  
الخصيب ؛ حيث تمتد ، من الشرق ، ومن حولها ، أراضي  
الفرات ودجلة ، ذات التربة الغنية ، والمحاصيل الوفيرة ؛  
ومن الشمال ، سهول حلب وحمص وانطاكية ؛ ومن  
الجنوب ، واحة دمشق ، وسهول حوران .

تلك هي تدمير ، عاصمة أئنة والزباء ، والجوهرية الأولى  
في تاج المملكة العربية الدمرية .

كانت تدمير من أهم مدن التجارة وأشهر مراكزها ،  
بين مدن العالم القديم ؛ الشرقية والغربية ؛ ومحطة كبرى ،  
للقوافل البشرية ، في جزرها ومدنها ، شرقاً وغرباً ، سواء  
في حروبها وغزواتها ، أو في تجارتها وأسفارها .

ولعل هذا الموقع الجغرافي الممتاز ، بالنسبة الى العالم  
القديم ، من أهم الأسباب ، التي جعلت لتدمير الحظ الأول ،  
في تبوأ الصدارة من حركة التاريخ الثوري ، في حضارة  
العرب الأولى ، في الوقت الذي كان فيه القسم الشمالي من



الجزيرة العربية ، خاضعاً للحكم الروماني ، أو بالأحرى مستعمرة  
رومانية ، كما يقول مؤرخو الرومان واليونان .

### تدمير والرومان

إن للموقع الستراتيجي الممتاز ، في كل زمان ومكان ،  
أهمية تجعل كل دولة كبيرة ، وقوية ، تفكر بالسيطرة  
عليه ، والنفوذ منه ، الى مطاعمها في البلاد الأخرى ؛ وهذا  
ما جعل الرومانيين ، يعملون لجعل تدمر ، حاضرة من  
حواضرهم ، تخضع لحكمهم وتؤدي الجزية لهم ، وتحارب  
أعداءهم ، والخارجين على سلطانهم .

ففي نحو السنة ٣٦ قبل الميلاد ، اراد الرومان الاستيلاء  
على تدمر ، بعد ان تنهبوا لمركزها الممتاز ، التجاري  
والحربي ، وتقدم نحوها القائد مرقس انطونيوس ، عندما  
كان عائداً من حرب الملوك الأرشكيين .

فما ان وصلت انباء الغزو الروماني ، الى اسماع  
التدمريين ، حتى هبوا لملاقاة القائد مرقس انطونيوس ، على  
الفرات ، قبل وصوله الى مدينتهم . وكانت معركة الفرات  
بين الفريقين ، من أعنف معارك القتال ، انتصر فيها



التدمريون ، واندحر القائد الروماني ؛ وسجلت تدمر لأول مرة في التاريخ ، إباءها الاستكانة ، ورفضها النير الاجنبي الذي يطمس حريتها ، ويدخلها في حوزة ممتلكات الأمبراطورية الرومانية - الكثيرة يومئذ - .

إلا ان الامر ، تبدل فيما بعد ، حين أدرك الرومان ، مناعة هذه المدينة ، وخطرها الكامن ، وراء مركزها الحربي ، والتجاري ، على السواء . فعمدوا الى فرض الحصار الاقتصادي عليها ، وجعلوا يعتقدون على قوافل التجارة التدمرية وينهبونها ، من وقت لآخر ، بعد ان امتنعت عليهم ، وصمد لهم ، جيشها الباسل .

على ان تدمر ، وقد كانت لا تزال مدينة ناشئة ، تراحم مملكة فارس ، ، ومملكة النبط ، تجاريا بادىء بدء ، لم تستطع الصمود اكثر من قرن ، أمام الحصار الاقتصادي ، وتوالي الاعتداء على تجارتها في الشرق والشمال والجنوب .

### أذينة الاول

ظلت تدمر ، بعد خضوعها للرومان ، آخذة بأسباب التقدم الحضاري ، باطراد . وكان من نتائج هذا التقدم ،



ازدياد القوة الحربية ؛ وانها لبادرة من بواذر التماسك في الهيكل الوطني ، نراها في جميع مراحل التاريخ ، اذ لا حياة للتجارة ، بدون قوة حربية تحميها ، ولا قوة حربية بغير تقدم صناعي ؛ وتجاري ايضاً .

فلما اكتمل لتدمير ، رقيها ومناعتها ، انتفضت في وجه الرومان ، واثارت على الاستعمار الذي كبلها اكثر من قرن ونصف قرن ، من الزمان « ١ » .

وكان ذلك في عهد أذينة الأول بن السيدع .

### شخصية أذينة

مفتاح شخصية أذينة ، هي النشأة التي نشأها ، والحياة التي عاشها في صباه ، ذلك الى جانب ما ورثه من حب لبلاده وحريتها ؛ وتاريخ انتصار التدمريين ، على مرقس انطونيوس ، غير بعيد العهد منه .

يقول المؤرخ ت. بوليون : « كان أذينة يتصرف — في

---

(١) هناك من يرى غير رأينا ، ويقول بأن تدمير خضعت للرومان في عهد ما قبل المسيح . كما ان المؤرخين القدماء أنفسهم ، مختلفون في هذا الشأن ، ونميل نحن — ميلاً قوياً ، الى الاخذ بالرأي الذي بيناه ، استناداً الى المنطق ، في شأن كل حركة مقاومة ، للاستعمار .



صباه - كما يتصرف الرجل . كان يصطاد السباع والفهود  
والدببة ، وغيرها من الوحوش الضارية . وكانت يحتل في  
سهولة ويسر ، الحر اللاهب ، والبرد القارس ، في السهول  
وفي الجبال والغابات ، كما كان يتحمل متاعب هذا الصيد  
في رضى وسرور ، وبفضل هذه الممارسة المتصلة ، استطاع ان  
لا يرى في اوار القبط وأهباء الزوابع ، في معارك فارس ،  
غير امر عادي ، لا يُعبأ به ، ولا يُؤبه له . « ولمثل هذه  
الامور دلالات تفرضها البداهة . وكثيراً ما يكون في  
ما تفرضه البداهة ، قواعد ثابتة للحكم ، سلباً وإيجاباً .

والبدوي هنا ، ان ربيب الصحارى والفلوات والجبال  
والغابات ، يجوبها للصيد وغيره ، سيداً حراً مطلقاً ، لا بد ان  
يكون متمرداً لا يقبل الظلم ، ومستقل الشخصية والارادة ،  
لا يُذعن لسلطان يفرضه غريب ، فيكون استعماراً يحمل  
في طياته شتى انواع الظلم ، السياسي والاجتماعي ، وغيره .  
والكثرة الغالبة من الثائرين ، في تاريخ العالم ، كانوا  
أناساً تذوقوا طعم الحرية بين احضان الطبيعة ، ثم سما بهم هذا  
الشعور ، تأثراً بالعلم والثقافة ، الى مرتبة في الحرية اعلى ، بعد اكتمال  
الحس والعقل ، هي مرتبة تفهم الحرية الجامعة مختلف ماهية



الحريات السياسية والاجتماعية ، في علم ووحي .  
وأذينة الأول ملك تدمر أحد هؤلاء .

ففي الزمن الواقع بين السنة ٢٣٥ م . والسنة ٢٦٨ م .  
كانت الدولة الرومانية ، تتأرجح بين البقاء والزوال . في هذه  
المدة ، ارتقى عرش تدمر ، الملك أذينة الأول .  
وأذينة من قبيلة عربية كبيرة ، من القبائل العربية المعروفة  
جملة ، عند الفرنج بالسرازين ( *Saxasina* ) وهي محرفة عن  
لفظ الشرقيين «أ» .

كان أول عمل ثوري قام به ، أذينة ، هو خلع سلطنة  
الرومان ، عن تدمر ، والاتفاق مع سابور ، ملك فارس  
الذي كان قد اقترب خطره يومئذ ، من بلاد الشام . فتحرر  
من دفع الجزية للرومان ، وأعلن استقلال بلاده ، الى جانب  
المهادنة مع الفرس .

ولكن سابور في إحدى المعارك ، منى بانكسار فظيع

---

(١) دائرة المعارف - البستاني .

وانه لمن المؤسف حقاً ان يغفل المؤرخون العرب ، ذكر نسب أذينة ؛ وان  
يكتفوا بذكر اسم ابيه السميذع . فكأن هؤلاء المؤرخين اخذوا على نفوسهم  
ان لا يعنوا عناية صحيحة في التاريخ ، الا بما كان بعد الرسالة . على ان  
«السميذع» اسم قبيلة معروفة ؛ سمي به ايضاً والد أذينة .



في بر الشام ، في الوقت الذي كانت فيه جيوش الرومان ،  
قادمة الى الشرق ، في غزوة جديدة ؛ وتراجع الى الفرات  
ثم الى بلاد فارس .

### الموقف الجديد

ورأى اذينة ان خطر الرومان يقترب من الشرق ؛  
ومعنى ذلك انه يقترب من مملكته ، ورأى حليفه سابور ،  
يتقهقر ، بمثل السرعة التي كان يتقدم بها . وادرك ان  
الرومان سيسحقون جيشه ، جزاء ثورته عليهم ، والخروج  
على طاعتهم ، في الوقت الذي لا يستطيع حليفه سابور ،  
ان يقدم له أية مساعدة ؛ بعد ان انهارت قواه الحربية ، وغدت  
غير كافية ، حتى للدفاع عن نفسه . ان الموقف شديد  
الخرج ، يتطلب عدا الجرأة ، وفرة ذكاء ، وبعد نظر ،  
وسعة حيلة .

ان تعريض تدمر ، لاستعمار روماني جديد ، شيء  
قاس 'مض' ، خطير شر العاقبة ؛ لذلك قرر اذينة نهج سياسة  
جديدة ينقذ بها مملكته ، ويوسع له في وضع الخطط لمطبخ  
بعيد ؛ فأعلن ولاءه للرومان ، وذهب لمحاربة سابور



باسمهم . ثم ارتد الى تدمر ، يرقب الأمور عن كثب ،  
ويتحين الفرص ، للسيطرة على جميع البلدان العربية ،  
واخراجها من حوزة الرومان ، والفرس ، على السواء .  
ولقد يبدو لأول وهلة ، أن في تصرف اذينة هذا ،  
انحرافاً عن المعاهدة التي كان عقدها مع سابور ، يزي به ،  
ويحط في ميزان الاخلاق ، من مكانته . ولكننا نميل الى  
الاعتقاد ، ان اذينة لم يفته هذا الامر ، وانه وازن بين تعريضه  
نفسه ، لمثل هذه الشائبة ، تؤخذ عليه ، ويعاب بها شخصياً ،  
وبين ما قد تنكشف عنه ، مغامرته ، من توطيد حرية مملكته  
وتحرير لبلدان عربية ، غير مملكته ، يحكمها سابور باسم  
الفرس ، هي بلاد ما بين النهرين - العراق اليوم . - والرومان  
والفرس سواء ، من هذه الناحية ، في نظر اذينة العربي .  
ففضل ان يُعاب ، واخذ بنظرية المغامرة ؛ فكان ، عندنا ،  
بذلك ، نموذج الرجل القومي العظيم ، لا يعنيه من امر نفسه  
الا ان تذهب هذه النفس كيفما تذهب ، في سبيل قومه ،  
حتى ولو ذهبت مشوبة باي عيب ، اذا كان في ذلك ، سلامة  
قومه ، وشرف قومه . وراح اذينة يشد على سابور وجيشه .  
وبالفعل خرج سابور من بين النهرين ، بعد ان الحق



به أذينة هزيمة نكراء .

### يجب ان تبقى روما ضعيفة

كانت روما في عهد غلينوس ضعيفة ، وكان في خلد اذينة ، انها يجب ان تبقى ضعيفة ، وأن أية ثورة على الامبراطور تنتهي بخلعه ، قد تؤدي الى تقويتها بامبراطور جديد ، أو تدعيمها . ومعنى هذا ان الاستعمار الروماني، يعود الى بسط يده على تدمير من جديد . لذلك رأى اذينة ان يحارب الأمراء الذين ثاروا على غلينوس ، وأرادوا بخلعه . فيشغلهم عنه ، الواحد بعد الآخر ، ويحطمهم ، الواحد بعد الآخر ، فيستمر الفساد في الامبراطورية ويستشري ، ويعن الضعف في روما فيوهن عزمها . وقد فعل ؛ فانتصر على هؤلاء الامراء ، مراراً . وهذه السلسلة من الانتصارات العديدة ، اصبحت مملكة تدمر ، قوة يحسب لها حساب كبير . واخذ الامبراطور غلينوس يهدي الى اذينة هدايا كثيرة . ولقبه بامير الشرق كله ...

### سياسة ايجابية واقعية

راح سابور بعد الهزيمة التي اوقعها به الرومان ، يعد



العدة لملاقاة الجيوش الرومانية . والثأر منها . وعرضت  
الفرصة ، فخاض ضد هذه الجيوش ، معارك طاحنة ، كتب له  
فيها النصر . فهزم الرومانيين ؛ وعادَ له بذلك ، سابق مجده ،  
وهيبته الحربية . فاثار هذا في نفس أذينة ، اموراً كثيرة ، حملته  
على التفكير العميق ، في تدبير جديد ، يُعده لسابور ،  
فتظاهر بالتقرب منه ، وارسل اليه الهدايا .

لكن سابور رفض قبول الهدايا بعنجهية ، وتهدد أذينة  
بحجوه من الوجود ، ورأى أذينة في هذا العمل اهانة له ،  
فثارت النخوة العربية في رأسه ، وحملته على ان يمشي الى  
سابور ، في تصميم عنيف ، على تحطيم كبريائه ، او الموت ،  
فكسره شر كسرة . وشرد جيشه ونهب بلاده .

كان أذينة ، أشد فها للواقع ، من سابور ، وأبعد  
منه نظراً ، في الشؤون السياسية .

كان يعرف أنه اقوى من سابور ، ومع ذلك ، قصد الى  
مخالفته ؛ ولكن سابور في غروره ، لم يكن يقيم وزناً  
لقوة أذينة الحربية ، واعتبر هداياه ، وكتابه اليه ، عنوان  
ضعف ، فكان في هذا استقواء لأذينة ، واضعاف لسابور .



واصبحت مملكة تدمر - بعد الانتصار على الفرس - اقوى  
مملكة في الشرق . ورأى أذينة ، أن الوقت قد حان ،  
لانشاء مملكة عربية ، تمتنع على كل محاولة استعمارية ، وتطول .

### المملكة العربية التدمرية

كانت جيوش الرومان ، قد عسكرت في شمالي سورية .  
وبعد عودة أذينة منتصراً من بلاد فارس ، أشعر  
الامبراطور غالينوس ، برغبته في اشراكه في الحكم .

ولم يكن من المنتظر ، أن يقبل غالينوس ، بمثل هذا  
الطلب ، الذي يزيد في سلطان اذينة وهيئته ، بنسبة ما  
يُنقص من هيئته هو ، وسلطانه . فحزم اذينة امره على  
مقاتلة الرومان ، ومشى الى حمص ، فحاصر الجيوش الرومانية  
فيها ، ثم فتحها ، وقتل القائد كياتوس . وهناك قول ،  
ان احد اعوان كياتوس . خانه ؛ ففتح ابواب حمص ، في  
وجه اذينة فدخلها منتصراً .

وتم لأذينة اخراج الرومان من شمالي سورية ، وتحقيق  
على يده ، قيام مملكة عربية مستقلة حرة .



## خطر القوط والكيشيين

لم يكد أذينة الأول ، ينتهي من محاربة الفرس والرومان ، حتى أقبلت على بر الشام ، قبائل من القوط والكيشيين ، آتية من جهة البحر الاسود ، فالتقاهم أذينة ، بقواته الباسلة ؛ يرنح اعطافها ، ويشحذ عزائمها ، ما لاقته من نصر بجنح ميمون ، في مقاتلتها الفرس والرومان ؛ فشنت شمل القوط والكيشيين ؛ وبهذا الانتصار بلغ أذينة القمة ، في اعماله الحربية ، فسادت تدمر سيادة فعلية ، واطمان ملكها الى لقب ملك الملوك .

## وأي

قال رنزال<sup>(١)</sup> : واذا اعتبرت ان العهد الذي فيه ارتقت حاضرة زينب - أي تدمر - الى اوج التمدن والقوة ، هو نفس العهد ، الذي فيه تواتر على عرش روما بعض الملوك الشرقيين كسبتييموس ساويروس ، واسكندر ساويروس ، وفيليب العربي ، فلا تعجب من كون أذينة الأول قد

(١) خطط الشام - ج ١ ص ٩٧ -



تجاسر على خلع السلطة الرومانية ، وإقامة دولة مستقلة  
تنظم بلاد العرب الشمالية كلها ..»

ونحن لا نرى بداً من مناقشة رأي «رنزفال» ، هذا .  
لسنا ندري في الواقع لماذا تغاضى «رنزفال» عن قوة  
أذينة الحربية ، وعزا خلع السلطة الرومانية وتحرير بلاده  
تحريراً كاملاً ، الى حالة بعينها ، هي تولي بعض الملوك  
الشرقيين ، بالتوالي ، عرش روما !!

إن انباء الانتصارات التي حققها أذينة على جيوش  
المستعمرين ، من رومان و فرس ، والتي تملأ غير قليل من كتب  
التاريخ ، تكفي لاثبات شجاعة أذينة وطموحه ، وللتدليل  
على ما كان في نفسه ، من ايمان بحق قومه ، في الحرية  
والسيادة ، وليس الايمان اقل من العلم ، قدرة على اجترار  
الاعاجيب !! ورغم ذلك فان «رنزفال» هذا — ولعله  
يهودي «١» — لم يُعن بهذه الحقيقة ، ولم ترد عنده في حساب .  
تُرى لو كان أذينة ضعيفاً جباناً ، لا يُحس للكرامة والحق  
معنى ، أكان من المعقول ان يندفع في مقاتلته الرومان ،  
مغامراً بروحه وارواح جنده ، لخلع نيرهم ، وتحرير بلاده ،  
من سيطرتهم ، حتى ولو تعاقب على عرش روما — في  
(١) بروحه على الاقل .



عهده - عشرات من الملوك الشرقيين !!?

ليس من شك في ان الجواب السلبي ، هو الحقيقة التي لا تقبل الجدل .

ومن جهة أخرى ، نرى ان أذينة ، قد بدأ باقامة مملكة عربية ، قبل خلع سلطة الرومان ، وليس كما يقول «رنزفال» : « تجاسر على خلع السلطة الرومانية وإقامة دولة مستقلة ، تحوي على انحاء من البواري ، في بلاد العرب الشمالية ! »

بدأ أذينة باقامة مملكة عربية مستقلة ، حين حارب الفرس ، وضم اليه القسم الشرقي ، الذي كان سابور قد بسط عليه نفوذه . وحين قهر الرومان ، في حمص ، كانت الدولة العربية التدمرية قد بلغت اوج عظمتها .

### مصلح اجتماعي

ان العظمة العسكرية والانتصارات الحربية لا تقوم بنفسها، عنصراً كافياً ، تستوي حضارة صحيحة ، لأمة من الأمم؛ فالقوة من هذا الطراز ، على انها عنصر ضروري جداً للحياة ، تظل في حاجة شديدة ، الى عقائد اخلاقية ، وقيم



روحية ، لتستقيم الحضارة وتستمر ، بآثارها - على الأقل -  
في النفوس والعقول .

وقد تجلت الحضارة العربية التدمرية<sup>[١]</sup> ، في ذلك الحين ،  
مرتفعة الى القمة ، في سلوك أذينة ، بعد ان بلغ أوج  
مجده الحربي .

كان اول ما سعى اليه أذينة ، القضاء على الاضطهاد، الذي  
كان يصيب النصارى في بعض مدن الشام ؛ كانطاكية وحمص  
ودمشق وقيسارية ، فاطلق الحرية الدينية التامة لكل  
الطوائف ، وأوعز الى الوثنيين ، وكان هو وثنيا - على  
طريقته - ، ان لا يتعرضوا للنصارى في قضاء فروض عبادتهم ؛  
ورخص لهم في اقامة البيع والكنائس<sup>[١]</sup> .

لقد تسامح وشجع التسامح . وعمل على إقامة العدل ،  
وعدم التمييز بين الطوائف على الاطلاق . ورعى حرية  
الناس وكرامتهم .

ان العناية بهذه القيم الروحية ، ومراعاة مقاييسها في  
صدق واخلاص وجد ، هي الخطوط البارزة في حضارة  
العرب في كل زمان ومكان .

---

«١» خطط الشام . ج ١ - ص ٩٧ -



اننا لا نعرف في تاريخ الدنيا كلها ، رجلاً قبل أذينة  
احترم المبادئ والعقائد الانسانية ، كما احترمها أذينة ؛ وثار  
على استعباد الانسان للانسان ، كما ثار أذينة . ولا نعرف  
ملكاً قبله ، حمى طائفة من الطوائف - ليست طائفته -  
بمثل الحماية التي حمى بها النصارى في بلاد الشام .

واذا قيس عمله هذا - منذ ١٧٠٠ سنة - بما كان  
يجري في اوروبة ، منذ ٣٠٠ سنة فقط ، من اضطهادات  
دينية ، ومذابح طائفية ، استطعنا أن نميز ، بين الحضارة  
العربية الانسانية ، في القرن الثالث للميلاد ، وبين الحضارة  
الاوروبية ، في القرن السابع عشر للميلاد .

### اشاعة الامن

ويجدر بنا هنا ان نجلو شكاً قد يُخالج بعض الأذهان ؛  
وهو أن أذينة ما فعل هذا ، الا تخوفاً من الرومان ، يحسب  
لهم في المستقبل حساباً ؛ والواقع ينفي هذا الشك نفيّاً  
تاماً . فان ما قام به من مطاردة العصاة ، من بقايا جيوش  
عاليينوس القائد الروماني المقهور ، وتاديبهم في قسوة وعنف ،  
لما كانوا يعكرون من صفو الامن ، وينزلونه من الاعتداء



والاذى ، في الناس ، ينفي هذا الشك «١» ويجيء باليقين ،  
ان أذينة لو كان يحسب للرومان حساباً ، لتودد الى بقاياهم ،  
يبدل البطش بهم . ولو عاش هؤلاء البقايا ، مسلمين ، لعاملهم  
بالعدل ، وساواهم امام القانون ، بسكان البلاد ، العرب ، وحمائم  
من العدوان ، وحفظ لهم حسن الجوار . واطلق لهم  
حرية العقيدة .

ولكن حبه توطيد الأمن في البلاد ، استدعى منه هذه  
السرعة في البطش ، بالذين يعكرون الامن ، ويُشيعون  
الفساد ؛ شأن الخازم العاقل ، الذي عانى سياسة الناس ،  
بوخبر نزوات النفوس ...

### نور وظلمات

على ان هذه المكانة المرموقة للحضارة العربية ، ايام  
أذينة الثائر المصلح ، رغم مميزاتها البارزة ، التي تعد ذات  
قيمة ووزن ، بالنسبة الى ذلك العهد ، لم تقو على الاستمرار  
وتخطي ظلمات الحياة ، في القرن الثالث الميلادي ؛ ذلك ان  
ثورة أذينة ، كانت ثورة مبكرة ، على الاستعمار الروماني

---

(١) المصدر نفسه .



والفارسي ؛ نقول مبكرة ، بالنسبة الى مستوى الحياة في  
البيئات الثلاث ؛ الرومانية والعربية والفارسية ؛ بعثتها قيم  
وقوى روحية ، في نفوس اصحابها الكبيرة العزيزة ، دون  
ان تنهض الى مستوى هذه النفوس ، قوى العناصر المادية ،  
الجناح الآخر للثورة . ان كل ثورة اصلاحية قد تبوء  
بالفشل اول الامر ، ويذهب صاحبها ضحية ، اي شهيداً ،  
لاسباب اجتماعية وعلمية ، لا سبيل الى انكارها . الا ان  
كل ثورة اصلاحية ، مهما يكن من شأنها ، حتى في حالة  
فشلها ، لا يمكن الا ان تترك جذوراً عميقة في هذا  
الكون ، المستمر الوجود ، ليست الثورات التي تليها ،  
وتوفي على الغاية ، سوى امتداد لها ، واكمال لاداء رسالتها .  
وهكذا تكون الثورة المصلحة المحسنة التي فشلت ، هي  
نفسها ، بمثابة انطلاقة فاعلة الى اصلاح وطني ، وبالتالي  
انساني ، يكون من عناصر ولادته ، تلك الانطلاقة الاولى  
التي فشلت في الزمن ، ليس غير .

### مقتل اذينة

وهذا الذي اثبتناه بالذات ، هو ما وقع لاذينة ، الثائر



العربي المصلح ، وثورته ، وانطلاقته الثورية العربية الاولى ؛  
فقد قتل اذينة غدرًا ، بيد ابن عمه مايونيوس ، في حمص ،  
حين ذهب لمقاتلة القائد الروماني هرقليوس !  
وهنا لا بد من القاء اضواء ، على مقتل اذينة الأول ،  
لا سيما وانه كان على يد ابن عمه وأقرب المقربين اليه .  
ان التاريخ لا يستطيع ان يثبت ، ان مايونيوس ، قتل اذينة  
طمعًا بتبوء عرش المملكة العربية التدمرية ؛ حتى وليس في  
التاريخ ما يدل على اية محاولة لمايونيوس ، من هذا النوع ،  
من قبل ولا من بعد ، ولكن التاريخ يثبت ، بأن العرش  
آل من بعد اذينة الى ابنه هبة اللات ، بشكل طبيعي  
وعادي .

ومن حقنا نحن ، بل من واجبنا ، ان نسأل : لماذا  
اذن ، قتل مايونيوس ابن عمه اذينة ؟!  
جاء في التاريخ الأوغسطي « حياة الطغاة الثلاثين » :  
« أن مايونيوس كان ابن عم لأذينة . وقد قتله لحقد اجرامي  
في نفسه لا غير ! »

إن ارجاع سبب مقتل اذينة الأول ، الى حقد اجرامي

---

(١) « Hist. Aug. Vie des Trente Tyrans » الفصل ١٤ .



في نفس مايونيوس ، « لا غير » ، امر غير منطقي ، إلا  
إذا رافقته شهوة في السيطرة ، والاستواء على العرش ! وليس  
هناك اي دليل ، على ان هذه الشهوة ، كانت تعيش الى  
جانب غيرها من الشهوات ، في نفس مايونيوس .

ويقول المصدر نفسه : « قيل ان مايونيوس كان قد  
تواطأ مع الزباء ، - زوجة أذينة الأول - على قتله » !!  
إننا نلاحظ هنا ان المؤرخ لا يجزم ، بهذا الرأي  
ويرويه على سبيل أنه ، قيل ، لا أكثر . وهو يدل قطعاً  
على انه يحتمل الشك ، عند المؤرخ نفسه .

وفي رأينا ان السبب هو احدى الأزمات الحضارية  
الرومانية في القرون الأولى لما قبل الميلاد ، وبعده .  
فمن المعروف ، ان اباطرة الرومان ، ذهب اكثرهم ،  
ضحية موآمرات ، كانت تحاك حولهم في الظلام . كما كانوا ،  
هم أنفسهم ، يسعون للتخلص من مزاحمهم ، بالقتل ،  
والاغتيال ، والموآمرات .

ومن المعروف ايضاً ، ان حب ارتقاء العرش ، والطمع  
في السيطرة ، والحكم ، قد تفشى امره ، بين الطبقة  
الأرستقراطية الرومانية ، واصبح مرضاً ، ينتقل من جيل



الى جيل بالوراثة . وهذه النتائج تكاد تكون طبيعية لكل  
حكم استبدادي فردي ، غير مستند الى رغبات الشعب .  
وقد عبر شكسبير عن ظلمات ذلك العهد ، بجملته  
الرائعة : « وانت ايضاً يا بروتوس !! »

قلنا ، اننا نشك ، كل الشك ، في ان يكون مقتل  
أذينة ، مبعثه دافع اجرامي « لا غير » في نفس مايونيوس .  
كما اننا نشك ايضاً ، في ان تكون الزباء ، قد تواطأت  
مع مايونيوس ، على قتل زوجها ، وهي المرأة التي يشهد  
لها المؤرخون جميعهم ، بسعة العقل ، والفضل ، ورفعته  
الخلقى . والتي كانت تساعد زوجها في ادارة دفة الحكم ، والقتال ،  
وبرغبة منه ، بعد ان لمع اسم زوجها ، في سماء العالم القديم ،  
كبطل حربي ، ومصلح اجتماعي ، واثار من الطراز الأول .  
واننا لا نعلم الى الشك طمعاً في فرض رأي معين ،  
او في سبيل تبديل حقيقة ثابتة . بل العكس هو الصحيح .  
فاذا نحن رددنا سبب مقتل أذينة ، الى تلك الأزمة  
الحضارية الرومانية ، كان افتراضنا هنا ، مبنياً على قاعدة  
علمية ، لا سبيل الى نكرانها ، وهي ما يسمونه « مرض  
العصر » ، كما يقول العلماء . ويتصل الامر هنا بالامبراطور



الروماني ، دون الامير العربي : « مايونيوس » وليس  
بكثير على امبراطور الرومان ، ان يعتمد الى التخلص من  
« ملك الملوك » في الشرق ، بتدبير موامرة يكون بطلها  
الظاهر ، مايونيوس ، ابن عم أذينة ، لقاء وعود يبذلها له  
الأمبراطور . وهذا من ضميم العقلية الرومانية في ذلك الحين .  
ولكن مايونيوس لا يلبث ان يلاقي جزاء فعلته الشنعاء ،  
فقد ثار عليه الجند ، لهذه الجريمة المنكرة ، وقتلوه ؛ كما  
يقول المؤرخ ت. « بوليون » صاحب « التاريخ الأوغسطي »  
المعاصر لأذينة .

وفي ثورة الجنود على مايونيوس ، معنى معبر ، يبين لنا  
مبلغ تعلق الجيش العربي ، بشخص أذينة ، قائده الشجاع المخلص ،  
الذي كان يرى في كل واحد منهم ، قبل كل شيء ،  
انساناً مواطناً ، ويمارس سلطانه فيهم مجرم القائد المخنك ، ورأفة  
الاب العاقل الحكيم ؛ وينشر العدل في شعبه ، بعدل .  
فان قيل ان مايونيوس قد ارتكب جريمة متأثراً بما  
يسمونه « مرض العصر » على سبيل حصر الجريمة في نفسه ،  
برزت الوقائع تخطيء الشق الاخير من هذا القول : ( حصر  
الجريمة في نفس « مايونيوس » ) اذ ان « مرض العصر »



وهو واقع تاريخي ، كان يلزمه حكماً ، « الغرض » من الجريمة ، وليس في الوقائع التاريخية ، على الإطلاق ، ما يدل على ان مايونيوس ، كان يطمح الى ان يحل محل أذينة على العرش ، ليصح ان يكون « مرض العصر » وحده ، بالذات ، عاملاً مستقلاً في اقدام مايونيوس ، على اقرار جريمته تلك . وانما الامر المنطقي المعقول ، ان يكون « مرض العصر » كان عاملاً قوياً في طوعية مايونيوس لحبكة المؤامرة الرومانية ، وقيامه اداةً لتنفيذ الجريمة ، ما يفيد منها ، الا الامبراطور الروماني ؛ او الامبراطورية الرومانية .

### الاحساس العربي عند اذينة

ويجدر بنا بعد ان سردنا الوقائع التاريخية ، وعلقنا عليها ، في نطاق المنطق التاريخي ، وقدرة الاجتهاد في تحليل الوقائع وتعليلها ، ان نتساءل عما اذا كان أذينة ، يحس حقاً احساساً عربياً ، ويتوق الى تحرير بلاده من وطأة الاستعمار الروماني ، أم أنه كان يهتم بالملك فقط ؛ وبتوسيع رقعة المملكة ، والسيطرة والنفوذ !



يجب ان نعترف اولاً ، بأن التاريخ العربي ، قبل الاسلام ،  
قد طُمس أوله ، ولم يكن آخره باكثر حظاً في البروز ،  
من اوله .

أهمل مؤرخو العرب اكثر ما حدث في تاريخ ما قبل  
الاسلام ، حتى اصبحنا اليوم ولا مندوحة لنا ، من الرجوع  
الى التاريخ الأوغسطي ، والمؤرخين الأجانب ، لتبيان  
حلقة مفقودة في صفحات تاريخنا القديم .

والبحث في مفهوم أذينة للملك ، يقتضينا الحذر ، بقدر  
ما يقتضينا الاهتمام ، والدقة .

فالحذر يفرضه عدم توافر النصوص التاريخية بل ندرتها .  
كما ان الاهتمام ، يفرضه واجب قوي ، نحاول ان ننهض  
بعبئه .

ان تاريخ العرب قبل الاسلام ، مئى بظلم مزدوج .  
ظلم ذوي القربى باهمالهم له . وظلم الاجانب ، بتقصيرهم  
في فهمه - وهم اقل الفريقين الظالمين تبعه ، واستحقاقاً  
للاعتقاد - ويبدو هذا واضحاً في اطلاق اسم « سورية  
الفينيقية » مثلاً ، على القسم الغربي من شمالي الجزيرة العربية  
حين قسموه الى قسمين :



١ - سورية الداخلية .

٢ - سورية الفينيقية .

وكانت تدمر تابعة للقسم الثاني ، وعاصمته حمص .

وفي هذا موضع للتنبيه ، الى ان الرومان ، لم يأخذوا بعين الاعتبار ، ماهية الاجناس التي كانت قد هاجرت الى شمالي الجزيرة العربية ، بقدر ما اعتبروا شمالي الجزيرة ، بلاداً كانت فيما مضى تسكنها شعوب او قبائل ، منها : الفينيقيون . لذلك اطلقوا عليها اسم سورية الفينيقية . وليس في هذه

التسمية دقة علمية « *Anthropologie* أنثروبولوجية »

ونظرة بسيطة ، عبر التاريخ ، استناداً الى التصوص الرومانية التاريخية نفسها ، ترى ان القبائل العربية ، حين بدأت تهجر نحو الشمال ، وتحتل مراكز هامة في المدن ، وفي البراري ، بدأ شمالي الجزيرة ، يشب في نمو حضاري سريع .

وقبيلة « السَمَيْدَع » - والد أذينة الأول - هي احدى هذه القبائل ، وقد أطلق عليها الاجانب اسم « السرازين .. » استوطنت هذه القبيلة تدمر ، فكان لها فيها منزلة مرموقة ، وشأن موفور .



وبالطبع ، قد نقلت القبيلة السميذعية ، معها ، لغتها وتقاليدها وعاداتها ، كما فعلت باقي القبائل التي هاجرت معها وبعدها . وبذلك ، أصبحت القبائل العربية ، هي السائدة في شمالي الجزيرة ، وكانت تشد هذه القبائل ، الى قبائل جنوب الجزيرة ، اواصر الدم واللغة والتقاليد والعادات ، يحسها اذينة ، كما يحسها غيره من ابناء القبائل الوافدة ، ولكنها في نفسه ، كانت اعرق رسوخاً ، وابين دلالة ، واغوى تعبيراً ، وهو السيد الكريم الشجاع الشريف ، ابن القبيلة «السميذعية» ، التي انما سميت بهذا الاسم — لما عُرِف عنها من سوؤد وكرم وشجاعة وشرف — وسيدها .

فلا عجب ، بعد ذلك ، ان نرى اذينة الأول يسعى ويغامر ، في جمع شمل هذه القبائل كلها ، في مملكة واحدة قوية ، ينقذها من وطأة الاستعمار وذله . ويمكن لها في الارض ، ما وسعه الى ذلك من سبيل . وقد فعل . ولم يتغير شأن اذينة ، بعد الذي كان من تحقيق امنيته في بني قومه .

فما كاد هذا الاستقلال يتم ، ويستقيم امر الدولة ، حتى راح اذينة يتصرف بطريقة ، تختلف تماماً ، عن طريقة



تصرف الملوك الذين يعينهم من الملك ، ان يتمتعوا بالملذات  
وان يطلقوا في ظله ، لشهواتهم ، الاعنة ، فلا يلقون بالا ،  
الى حقوق الرعية ، ولا يعنون بما يؤمن لها العدل ، ومقتضيات  
العيش الكريم .

فقد عني اذينة بحقوق رعيته ، وسهر - مع محافظته  
على جلال الملك ونعيمه - على توفير العدل لها ، والامن ،  
والكرامة .

كان بعض العرب ، قد اعتنقوا النصرانية ، واصبحوا  
بذلك ، متصلين بالرومان بواسطة الدين الجديد ؛ وراح  
الوثنيون - وهم الاكثرية الساحقة - يعنون في اذى  
النصارى ، والاعتداء عليهم ، والسخرية من طقوسهم الغريبة  
عن ديانتهم ؛ فيعمد اذينة الأول ، الى حمايتهم ورفع  
الاذى عنهم . ويوسع لهم في السماح ، باقامة البيع والكنائس ،  
ويوعز الى الوثنيين في موآلفتهم واكرامهم .

وهذا ان دل على شيء ، فانه يدل على حبه العرب ،  
لانهم عرب مثله ، وان دانوا بغير ما يدين به .  
وبهذا - مضافاً اليه ما عرفت من تصرفاته في امور  
مملكته العربية - نستطيع ان نقرر ان اذينة كان يحس



احساساً عربياً صادقاً .

ان القومية بمفهومها العلمي لم تعرف إلا في القرن التاسع عشر . ولكنها - احساساً - وجدت ، منذ وجدت الحليقة ، وتفرق الناس بلغاتهم وتقاليدهم ونزعاتهم ، كونتها ظروف الحياة ، ومقتضيات التفاهم ، في مختلف الارحاء .

وقد كانت القومية ، في احساس بعضهم ، أقوى منها في احساس البعض الآخر ، الأمر الذي يجعلنا نكبر من شأن ابطالها الحقيقيين ، لأن القومية بمفهومها الرفيع ، وجه من وجوه الانسانية ، ونزعة من نزعاتها ، تدور في فلك انساني واحد ، مع مختلف القوميات ، تنمو وتتبلور ، لتتلاقى على قمة الانسانية الخالدة .

كان بإمكان اذينة ، ان يطمع في عرش روما . وأن يصل اليه ، كما وصل اليه بعض الرجال الشرقيين ، من أمثال فيليب العربي ، وغيره . ما ادرانا !

ولكن اذينة يحس أنه عربي ، وأنه فرض عليه ان يعمل لقومه العرب ، قبل كل شيء ، فيحررهم من العبودية للرومان ، ولغير الرومان ، ويسعى لهم في الخير ، ويجعل منهم ما استطاع ، عنصراً من عناصر الحضارة المحسنة .



وقد فعل . ان التمرد على الفرس ، وعلى الرومان معا ، ومقاتلتها  
لاخراجها ، من شرق الجزيرة وشمالها وغربها ، امر ليس بالهين ،  
حتى ولا المستطاع ، لرجل لا يؤمن بعبقريه قومه ، ولا يحس  
احساساً « قومياً » اذا جاز التعبير .







== الزَّيْبَاءُ ==



## امراة لا كالتساء

بعد موت أذينة الأول ، نودي بابنه هبة اللات ملكاً على تدمر . وكان هبة اللات صغيراً ، لا قبل له بتدبير الملك ، وتصريف شؤون الدولة ، فتولت الزباء ، الملكة الوالدة ، زمام الحكم ؛ وبشرت بنفسها تدبير الأمور ؛ وتصريف الشؤون العامة .

والزباء لقب من القاب ملكة تدمر ، التي قيل « ١ » أن إسمها زينب . وبهذا الاسم عرفت عند الرومان واليونان بعد تحريفه ، فاطلقوا عليها اسم : زنوبيا *Zanobia*

وكلمة الزباء ، لغة ، تعني ذات الشعر الغزير الطويل . وغزارة الشعر في هام المرأة ، وطوله ، سمة جمال ، في نظر الناس جميعهم في تلك الايام .

والظاهر أنهم اطلقوا عليها هذا اللقب في طفولتها ، فعاش معها ، وبه اشتهرت بين قبائل العرب الذين اذعنوا لها وأيدوا ملكها .

---

( ١ ) هناك من يقول ان اسمها هند ويروون حولها قصة : « لامر ما جدع قصير انفه » . والاصح ان يكون اسمها زينب ، وهذا - تاريخياً - اقرب الى الثبوت .



إلا ان المؤرخين - واكثرهم من الاجانب - أخطأوا ،  
- نقول اخطأوا لاننا نعتقد انهم لم يتعمدوا الامر - حين  
ردوا كلمة الزباء Batzabbai الى الأرامية ، وهي عربية  
مئة بالمئة . على ان الارامية هي احدى اللهجات العربية ،  
كما هو معروف . ولعل خطأهم هذا ، نتيجة مقارنتهم  
اسم الزباء ، بزنبوبيا ، وعدم وقوفهم على صلة بينهما ،  
فافترضوا هذا الافتراض ، وكان خطأ .

\*

تكلم المؤرخ ت. بوليون ، عن زنبوبيا ، ورسم لها صورة  
لا تختلف كثيراً ، عن الصورة التي رسمها للملك أذينة . بل  
إنك لتعجب لأوجه الشبه الكثيرة المشتركة بينهما . كما تعجب  
لتلك الروح الرياضية ، التي يتحلى بها كل منها .  
تحب زنبوبيا الصيد والقنص ، وتخرج بهذا القصد ، الى  
البراري والجبال والغابات ، وتقضي اياماً ، تكون فيها عرضة  
لقر الليل وقيظ النهار ، دون أن تشكو تعباً ، أو يفت في  
عزمها السير ، ومطاردة الطيور ، والغزلان ، والوحوش الضارية .  
وكانت تركب الخيل في نزهاتها دائماً ، وكثيراً ما كانت  
تسابق الفرسان ، لتختبرهم وتكوّن لنفسها فكرة عن افراد



جيشها ومقدرتهم

وهي الى ذلك كريمة السجايا متينة الخلق ؛ تبسط يدها  
بغير اسراف ، ولا تغلها لشح ، بل حين يأبى العطاء ، أن  
يكون في غير موضع العطاء .

يشهد لها بهذا كله ، المؤرخون القدامى . ويصفونها بالكرم  
الحريص ! والاقتصاد المركز .

وكانت الزباء على جانب كبير من النباهة والذكاء .  
حفظت علوم عصرها ، وأجادت - عدا العربية لغتها -  
كثيراً من اللغات ، بينها اليونانية والمصرية واللاتينية والفارسية .  
واطلعت على تاريخ الشرق ، والفت فيه كتاباً ذكره  
المؤرخون ولم يصل اليها « ١ » .

كما اصابته قدرات كبيرة من علم الهندسة ومتفرعاتها  
كالبناء والنقش والرسم والحفر .  
وجالست العلماء والفقهاء وناقشتهم ، مفيدة ومستفيدة .  
وعلى يد الفيلسوف لونجان *Longin* ، استاذها ، درست  
الفلسفة والأدب اليونانيين وحققتها .

ومن صفاتها البارزة : الصبر والثبات . وقد ظهرها معاً

---

( ١ ) *Palmyre* تدمر . جان ستاركي .



في حروبها مع الرومان .

وكانت طبيعتها الأثوية ، في مستوى مترفع عن الشهوات ، متصل اتصالاً وثيقاً - وربما في غير وعي - بنظرية كون الاتصال الجنسي ، انما ينبغي ان ينظر اليه ، كاداة لبقاء النوع ، باستمرار النسل .

قال المؤرخ بوليون<sup>(١)</sup> « ما معناه : » ان عقبتها بلغت بها ، أنها كانت تأبى على زوجها ، ان يتصل بها اتصالاً جنسياً ، الا لانجاب النسل . فلا تتسامح معه بذلك ، الا في حالة تيقنها ، انها ليست حاملاً »

هذه عفة « وتأنسن » قليلاً ما نجدهما عند النساء ، مهما يبلغن من راحة العقل وسمو النفس .

انها تمرد واستعلاء على عبودية الشهوة ، وتقديس لحرمة الجنس البشري ، يكون الاتصال الجنسي ، اداة لاستمرار بقاءه ، وهو - اي هذا الاتصال - عند الكثرة الساحقة من البشر ، غاية في ذاته ، ولذة ينتهبا الرجل كلما وجد الى ذلك سبيلاً ...

---

(١) ت. بوليون : التاريخ الاوغسطي « حياة الطغاة الثلاثين » . الفصل التاسع والعشرون .



ان الارتفاع عن دنس الشهوة ، إباء وعزة نفس .

ومحبة انجاب النسل ، من اجل بقاء النوع ، انسانية  
ليس فيها ، من حيوانية الشهوات ، من شيء ، بل هي  
تقديس ، في اعلى مراتب التقديس ، للنوع البشري .

ومتى عرفنا ان الزباء ، كانت في مثل هذا المستوى العالي ،  
من العزة والاباء ، والعصمة ، عرفنا اي انسان رفيع ، في  
اهاب هذه المرأة العظيمة ، بينما نرى اكثر النساء ، واكثر  
الرجال ايضاً ، تسيطر عليهم هذه الشهوة ، سيطرة عجيبة ، تحرمهم  
تذوق لذة القدرة ، على الارتفاع الى هذه المنزلة الانسانية  
الكريمة .

اما الجمال في زنوبية فقد رُكِّز كله في عينيها السوداءوين  
الساحرين . ولم تكن بشرتها الشديدة السمرة ، غير صفحة  
نقية ، تفيض عليها ابداً ، حدقتها المتسعان بنور سماوي ،  
كثيراً من هذا النور ، فيتراءى لك الجمال فيها ذا سلطان ...  
صولجان ؛ يجسم ما فيها من فتنة ، اسنانها اللؤلؤية الناصعة ،  
وصوتها الهادي يستبين لك فيه ، صدق العزيمة ومضاء الارادة  
والخزم .



### ثورة على التقاليد

إن أول ما يستوقف الباحث في أمر الملكة الزباء ،  
هو ذلك الحب العميق ، لكل ما هو طريف من حضارة ذلك  
العصر .

كان أفق نفسها ، يستجيب لرغبتها في التجديد النافع ،  
وعقلها الراجح المثقف ، يسهّل لها الأخذ بالعادات الصالحة ، عند  
الآخرين .

فقد أدخلت الى مملكتها عادات فارسية ومصرية ويونانية  
ورومانية ؛ كان من مزجها في البوتقة العربية التدمرية ، خير  
كثير للمملكة ، من الناحية الاجتماعية ؛ وخلعت على نفسها  
من أبهة الملك ، وهيبة السلطان ، ما نافست به اباطرة الرومان .  
وكانت في اجتماعات كثيرة ، تسير القواد والرجال البارزين ،  
في الشراب ، بالرغم من زهدا فيه .

كانت تخرج الى الجموع وعلى رأسها خوذة فولاذية ،  
وعلى جسمها معطف ارجواني خميل ، مزين بالجواهر والآليء ،  
وكثيراً ما كان ذراعها ، يبدو عارياً حتى الابط ،



— على طريقة اباطرة الرومان — وهي تخطب في الجماهير ،  
وترشد وتوجه .

ومن بين حاشيتها جعلت الحصيان والبنات ، يقومون على  
خدمتها « ١ » ويعنون بشؤونها الخاصة .

وأقامت حرساً خاصاً يحيطها ساعة دخولها غرفة المائدة  
وساعة خروجها منها .

واستعملت الصحون الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة  
كما كانت تفعل كليوباترة .

ليس في ادخال مثل هذه العادات والتقاليد على البلاط  
الدمري ، يعد في ذاته ثورة على القديم ، ونزوعاً الى التجديد ،  
الذي تتطلبه مملكة تريد ان ترتقي ، لتضاهي الممالك المعاصرة  
لها يومئذ .

وليس تبني مثل هذه التقاليد والعادات وفرضها ، بالامر  
اليسير ، فهو بحاجة الى معرفة وجرأة وثقة وحزم .

### الزباء ملكة وقائدة جيش

تولت الزباء الحكم في سنة ٢٦٧ ميلادية ، بعد ان

( ١ ) جعل الحصيان في خدمة الحريم ، عادة اكثر من درج عليها الفرس .



ورث ابنها البكر ، هبة اللات ، لقب « ملك الملوك ومصلح الشرق » .

وزاحت هي تنظم شؤون المملكة ، بعد ان كانت المملكة اذغنت من جديد ، للرومان ، على اثر موت أذينة الأول .  
والذي قلناه سابقاً عن مقتل أذينة الاول ، والمؤامرة التي استتجنا ، من طبيعة الحوادث التي رافقتها ، انها كانت السبب في ذلك ، يبدو هنا واضحاً ، في ان اخضاع الرومان لمملكة تدمر ، بعد ثورتها وسيادتها ، جاء نتيجة مباشرة ، لمقتل الثائر ، الملك أذينة ، الذي سبب ثورة الجند على ابن عمه مايونيوس ، وقتلهم اياه .

واذا كان التاريخ الروماني ، لا يشير بوضوح ، الى مؤامرة مدبرة ، من قبل الامبراطور الروماني ، للقضاء على أذينة ، فليس ذلك عجباً . واننا ، نكتفي هنا بالاشارة الى هذا ، واضعين علامة استفهام ، امام هذه الحادثة ، التي قال عنها مؤرخو الرومان ، أنها كانت محض شهوة اجرامية ، في نفس مايونيوس ؟!

\*

تولت الزباء الحكم ، واخذت تُعنى -- اكثر ما تُعنى -- بتنظيم الجيش وتدريبه . وكانت تسيّر على رأس فرقه في



مناوراتها ، وتمريناتها العسكرية .

يقول تـ. بوليون « ١ » : « حدثوا عنها ، انها غالبا ما كانت تسير على قدميها ، ثلاثة أو أربعة أميال ، في مقدمة الفرق العسكرية . »

ان اشرافها بنفسها على التمرينات العسكرية ، ومشاطرتها الجند الوان الحشوة ، والعناء التي يلاقونها ، وهي غير ملازمة بذلك حكما ونظاما - لما يد لنا ، على انه كان في نفسها اشياء .. من آمال ، ومطامح ، تتصل بمستقبل مملكتها ؛ ادناها ، الثورة على هؤلاء الاجانب المستعمرين .. واول ما يقتضيها هذا ، واهمه ، اعداد القوة . والقوة ، منبثقتها الجيش ، مادة ومعنى . تدريباً وتنظيماً وصبراً على الشدائد ، واستخفافاً بالمكاره ، واقداماً على المغامرات ، وتوفيراً للسلاح ، وفهماً لاساليب القتال ، وخطط الهجوم والدفاع . وهي تعقل هذا كله وتعيه . وعلى اساس انه كان من المقرر في ذهنها ، انها هي ، التي ستقود جيشها ، عملياً ، في المعارك المتوقعة ، بينها وبين الرومان ، كانت تعد نفسها لتحمل اعباء القيادة ، من ناحيتي وضع الخطط الحربية فنياً ، وتنفيذ هذه الخطط ، عملياً

---

( ١ ) المصدر السابق ، تـ. بوليون .



في الميدان . كما كان يفعل زوجها اذينة الاول .

### تمهيد للشورة

في سنة ٢٦٨ ميلادية أصاب الدولة الرومانية هزات داخلية ، فقد وقع فيها من الحوادث ، ما اقلق امنها وبعث الانشقاق والتفسخ في جماعاتها المختلفة ، فكان من جراء ذلك ، ان كثرت المنازعات الداخلية ، والفتن ، واضطرت الدولة الى ارسال حملات تأديبية ، الى كثير من الارحاء .

ففي منتصف هذه السنة ، اغتيل الامبراطور غالينوس في ميلان ، ونصب مكانه أورويلوس ؛ ولم يلبث الامبراطور اورويلوس طويلاً ، حتى قتل هو الآخر ، ونودي بعده ، «ب» كلود امبراطوراً .

ثم جاءت على أثر ذلك ، ثورة القوط الغربيين ، في اواسط اوروبة ، وتفاقم خطرهما الى حد اضطر الامبراطور كلود نفسه ، ان يقود الحملة لقتالهم ؛ وقد نجح فعلاً في اخماد نار الثورة وسحق الثوار ، في معركة فاصلة عند مدينة « نيش »

ولم يلبث الامبراطور الجديد ، ان مات بمرض الحمى ، بعد حكم دام سنة أو تزيد . فانشق قسم من الجيش ونادى



باورليان امبراطوراً ، وكان أورليان قائداً لفرقة الحيلة  
في ايليريا» (١) .

وتحركت قبائل البربر تقلق راحة الامبراطورية وتشن  
على بعض اجزائها غارات عنيفة .

وكانت الزباء ، وفي نفسها الحرة الطامحة الى تحرير  
مملكته ، ما فيها من امال جسام ، ترقب الحوادث والحركات  
في تتبع منظم ، وفي دراية واسعة ، في مختلف انحاء  
امبراطورية الرومان .

وقد رأت في الوضع الذي آلت اليه الامبراطورية  
الرومانية ، من الفوضى ، فرصة موآتية للتمرد على الدولة  
المستعمرة ، فأقدمت على عملية قد يصح ان تسمى في عرف  
السياسة اليوم عملية « جس نبض » فاعلنت اولاً ، تلقيب  
ابنها وهب اللات ، قنصلاً ، ثم امبراطوراً .

وكانت هذه الخطوة بمثابة تمهيد للخطوة الثانية .

وخطت الخطوة الثانية ، فاقدمت على ضرب نقود باسم  
ابنها ، الامبراطور ، ووضعتها للتداول بين ايدي الرعية .

---

(١) ايليريا ، منطقة جبلية في البلقان على طول بحر الادرياتيك ، يسكنها  
قوم سلافيون .



اننا نرى في هذا العمل اتجاهها نحو اعلان الثورة ،  
الثورة التي تصطرع في صدر الزباء ، وتتحين الفرص لايقاد  
نارها . وكان من تصرفاتها ، وكيفية معالجتها مختلف قضايا  
مملكتها ، ما اعاد الى ذاكرة شعبها ، صورة اذينة الاول ،  
زوجها البطل ، الذي كان حرر المملكة التدمرية ، واذاقها  
طعم العزة ، وكرامة الاستقلال .

#### تدبير جديد

رأينا قبلاً ، ثورة اذينة الاول على الرومان ، تبدأ بمقاتلتهم ،  
واخراجهم من شمالي الجزيرة العربية . ثم اعلان تدمير  
مملكة مستقلة ، لا توالي الفرس ، ولا تدفع الجزية ، للدولة  
الرومانية .

ولكن الزباء ، ستسير في خطة جديدة ، وتتهج طريقاً آخر ،  
بسييل القضاء على الدولة الرومانية ، في الشرق .  
ففي سنة ٢٧٢ ميلادية ، أقدمت فجأة على تخليص مصر  
من قبضة الرومان ، دون ان يخامرهم اقل شعور بفكرتها ،  
وعزمها على تحقيق هذه الفكرة . وانه لتدبير فيه من  
براعة السياسة ، ما لا يقل عن براعة العمل الحربي الصاعق



ويكبر القاريء العمل ، ويدرك مدى خطورته ، ومبلغ وقعه في نفوس الرومان ؛ حين يعلم ان مصر ، البلد الغني الحبيب ، تشكل مورداً من اهم موارد الدولة الرومانية ، وشرياناً من الشرايين الضخمة التي تغذي روما ، بالكثير من مقتنيات الحياة ؛ فانفصالها عن الرومان سيحرهم الانتفاع بقوى جسيمة من الرجال ، ومن المنتجات ، وبالنتيجة ، يجعل من مصر ، قوة قد لا تكتفي بالانفصال حسب ، بل قد تقاثلهم في المستقبل ، في كثير من الميادين ؛ وقد حمل هذه المعلومات الى الزباء ، بعض التجار الذين كانوا في مصر ، ولهم اطلاع واسع ، على حالتها الاقتصادية والروحية ، كما حمل لها - جنود تدمريون من افراد حامية كانت هناك - معلومات حربية اعتمدتها في الخطة التي رسمتها ، للحملة على مصر . وهي تدرك ان حملتها هذه ، على جزء ضخم من اجزاء الامبراطورية الرومانية ، يكفي فيها ، انها تشغل الامبراطورية عن المملكة التدمرية ، وتوهن من قواها الحربية الى حد بعيد .

ومن وراء هذه الحملة ، ستنتفع ايضاً ، من استيلائها على أهم مرافئ التجارة ، في حوض البحر الاحمر . وفي هذا ازدهار للتجارة التدمرية ، ونشاط لحركة النمو الاقتصادي - حسب



### تحرير مصر

سيرت الزباء على مصر ، جيشاً مؤلفاً من سبعين ألف مقاتل ، تام التدريب ، مُحكم التنظيم ، مجهز بكامل العدة والمؤن ، على رأسه قائد الجيوش التدمرية : عبدوس « ١ » .  
سار « عبدوس » الى مصر ، بعد أن حرر مراقيء في البحر الأحمر ، وأخذ يتوغل في الاراضي المصرية ، يهز في بعض ارجائها ، حامية الرومان الموزعة هنا وهناك ، والبالغ مجموعها ما يزيد عن خمسين ألف مقاتل ، ويتبعه القائد المصري تياجين ، الذي وضع نفسه في خدمة الزباء .  
وبعد معارك عديدة طاحنة ، ولّى فيها الرومان ، وذهبت سلطتهم ، واصبحت مصر غير خاضعة لحكم اجنبي .

### مصر بلد مستقل

بعد هزيمة الرومان ، وتحرير مصر منهم ، قفل عبدوس .  
( ١ ) جاء هذا الاسم في تواريخ الرومان هكذا « زبداس *Zabdas* » وذكره محمد كرد علي في خطط الشام هكذا : « زبداس » ولعله اقرب الى التعريب قولنا عباس او عبدوس .



راجعا الى تدمير ، على رأس جيشه الظافر ، وقد ترك في مصر ، حامية صغيرة ، مؤلفة من خمسة الاف مقاتل . وهي في الواقع قوة ضئيلة ، لا تستطيع الصمود امام هجوم روماني كبير ، قد يعقب الهزيمة ، اذا ما فكر الرومان في استرجاع مصر .

ان ما قلناه سابقاً ، عن عزم الزباء على تحرير مصر ، ورغبتها في جعلها بلداً مستقلاً ، يؤيده انسحاب عبدوس السريع ، والاكتفاء بهذه الحامية الضئيلة ، تبقى رمزاً لعلاقات الود بين البلدين ، المملكة التدمرية ومصر ، التي ستجلى في معاونة هذه الحامية ، للقوة الوطنية التي يمكن ان تجندها مصر ، للوقوف بوجه الجيش الروماني ، اذا ما حدث الامبراطور نفسه بالعودة الى الاستيلاء على مصر ، فالذي يهم الزباء هو خروج الرومان من مصر ، وليس سيادتها هي على مصر . والراجع عندنا ، ان الزباء كانت تعتقد ان المصريين ، حينما يرون خروج الرومان من وطنهم ، ويشعرون بتمتعهم بحريتهم واستقلالهم ، وبوقف الزباء منهم موقف النصير ، سيهبون الى تأليف جيش وطني يحمي مصر ، ويجول دون عودة الجيوش الرومانية اليها . تشد ازهرهم في هذا السبيل ،



بجد واخلاص ، الزباء ، وجيوش الزباء ، وفي طليعتها الحامية  
التي تركها القائد عبدوس في مصر ، بعد ان هزم  
الرومانين وعاد الى تدمر .

وانه لتفكير كما ترى رائع ، يشهد للزباء بالعبقريّة  
السياسية ، فهي اذا لم تفرض سيادتها على مصر ، استجابة  
لمبدأ حق تقرير المصير ، لكل شعب ، او عجزاً عن تثبيت  
هذه السيادة باستمرار ، فلا اقل من تحطيم سيادة الرومان  
على مصر ، واقصاء الجيوش الرومانية عنها ، فان في هذا  
وحده خيراً للزباء كثيراً .

وقد صدق حدس الزباء فيما يتعلق بدفاع المصريين عن  
بلادهم ، ووقوفهم في وجه الغزاة الرومانين .

كان بروبوس ، احد قادة الرومان ، موفداً من قبل  
الامبراطور الروماني ، لتطهير البحر من القرصان ، الذين  
اشتدت غاراتهم على سفن التجارة ، وازداد خطرهم على الدولة  
الرومانية ، واصبحوا سادة البحر الابيض ، لكثرتهم ،  
وشدة بطشهم ، واستهزائهم بالانصار .

وكان على بروبوس ، ان يعرج على الاسكندرية ،  
لتزويد سفنه وجيشه بالمؤن .



وفي الاسكندرية ، علم بحملة التطهير التي قام بها الجيش  
التدمري ، وتمرد مصر على الرومان .

فكان عليه ان يقوم بحملة يُخضع بها مصر ، من جديد .  
وبالفعل انزل جيوشه الى البر ، وتوغل نحو القاهرة .

وكانت خطته ان يقاتل الجيش المصري اولا ويهزمه ،  
ثم يقطع الطريق الى الشام ، على الحامية التدمرية ، التي تساند  
المصريين ؛ ومن اجل هذا عمد الى احتلال مرتفع ، يقع شرقي  
القاهرة ؛ منتظراً هجوم المصريين والحامية التدمرية .

غير ان المصريين كانوا اسبق منه الى اتخاذ الخطة ،  
واستغلال المرتفعات ، وغيرها من الاماكن الاستراتيجية .  
فقد عمد قائدهم تياجين الى المفاجأة ، فصعد هضاب  
القاهرة الشرقية خلصة ، على رأس الفين من المقاتلين ،  
وفاجأ جيش بروبوس بهجوم صاعق عنيف ، فانزل به  
هزيمة نكراء .

وكاد بروبوس يقع اسيراً في يد تياجين ، لولا ان عمد  
الى الانتحار .

### قيصر تدمر

ما كادت انباء هذا الانتصار ، تصل الى تدمر ، حتى



استقبلتها الزباء بكثير من الاعتبار . ورأت في هذا النصر ،  
صواب الحطة التي كانت قد رسمتها ، والتي بدأت تعطي  
ثمارها المرجوة .

وفي غمرة النشوة بالنصر ، تناولت الشعب كله ، أعلنت  
تلقبها نفسها بلقب « القيصر » وتلقب هبة اللات ابنها  
بلقب « قيصر » . وهو ارفع لقب يطمح اليه ملك في  
ذلك العصر .

وضربت نقوداً جديدة ، تحمل صورتها ، مع اللقب  
الجديد . وتحمل صورة هبة اللات ، ولقبه الجديد ايضاً .

### تهديم الامبراطورية الرومانية

عندما رجعت جيوش تدمير من مصر ، يكلل هاماتها  
غار النصر ، اهتزت تدمير ، فرحاً واعتزازاً ، واقامت  
لجيوشها المظفرة الباسلة انواع الزينة . واستقبل الشعب ،  
وعلى رأسه « الزباء » ملكته العاقلة الشجاعة المحبوبة ،  
القائد عبدوس وجنوده استقبالا رائعاً ، كان في جملة  
نتائجه ، ارتفاع مغنويات الجيش ، واغراؤه باعمال بطولته  
في قتال جديد . ولم تجعله « الزباء » ينتظر طويلاً ، فقد



أمرته بالحملة على آسية الصغرى ، محررها هي الأخرى من نير  
الرومان .

ومن الطبيعي ان تكون خسارة الرومان لمصر ، تتبعها  
خسارتهم لآسية الصغرى ، بداية ونذيراً في تهديم الامبراطورية  
الرومانية في الشرق .

وكان عبدوس ، القائد المظفر ، على رأس هذه الحملة  
ايضاً . فسار بجيشه حتى بلغ انقرة ، فحررها . واخذت  
البلاد تسقط جزءاً بعد آخر بين يديه ، حتى وصل الى  
سواحل البوسفور . وكان شيئاً من الهلع خامر نفوس  
الرومان ، فوجه الامبراطور اورليان نداء مؤثراً ، الى مدن  
آسية الصغرى ، يطلب منها الصمود بوجه الجيوش التدمرية ،  
ريثما تصل الحملة الرومانية ، فاقفلت « كلسيدوانيا » ابواب  
اسوارها ، ولم تستقبل التدمريين كما فعلت انقرة وغيرها .  
ولم تعتمد جيوش الزباء الى فرض الحصار على المدينة ،  
ولا حاولت تهديم اسوارها . بل اخذت تتراجع بشكل  
انسحاب ، وفي نظام .

وهذا امر ، يستدعي التساؤل من جهة ، والتقدير من  
جهة أخرى .



اذ ما قيمة الهجوم ، اذا كانت نهايته ، تراجع بغير قتال ؟!  
واذا كان التاريخ لم يذكر سبباً لهذا الانسحاب ، ولم  
يعله مجال من الاحوال ، فليس ما يمنع ان نستنتج نحن ،  
استناداً الى خطة الزباء في تحرير مصر ، انها كانت تبغي  
تحرير آسية الصغرى ، وليس السيطرة عليها ، وضمتها الى  
مملكها . كما انها كانت تطمع في مساعدة الشعب على اقامة  
دولة مستقلة عن الرومان ، فتكون بمثابة حاجز ، بين  
الرومان وبين مملكها ... ولكن اهل آسية الصغرى ، يبدو  
انهم كانوا اقل رغبة من المصريين ، بخلع نير الرومان ،  
وتأسيس دولة لهم مستقلة ، فلم يستجيبوا لها ، فما ان وصل  
اليهم نداء اورليان ، حتى هبوا الى مقاومة « الزباء »  
يشدد عزائمهم ، ما وعدهم به اورليان من مدد ، سيصل اليهم  
حتماً ، وادركت « الزباء » خطر الامر ، وخشيت  
مغبته على جنودها ، فاصدرت امرها الى القائد عبدوس  
بالانسحاب . وانه لتفكير منطقي صحيح ، اذ ما قيمة  
الدفاع عن بلد ، ضد مستعمره ، ما دام هذا البلد يطمئن الى  
وضعه ، ولا تضطرب في نفسه رغبة التحرر من مستعبدية ؟!  
اما امتناع الجيوش التدمرية عن التخريب والتدمير



والحريق ، في خلال انسحابها الهادي المنظم ، فاقل ما نرى فيه ، انه مظهر من مظاهر النبل العربي ، وسجية من سجايا النفس العربية الاصيلية ، في احترام حقوق الآمنين من السكان وحررياتهم .

### عودة الرومان الى مصر

في الوقت الذي كانت فيه جيوش الامبراطور اورليان ، التي قادها بنفسه - بعد ان شعر بخطر الزباء - تتوغل في آسية الصغرى ، وتتقدم دون مقاومة ، كانت حملة رومانية ثانية ، بقيادة بروبوس<sup>(١)</sup> تغزو مصر .

وقد لاقى بروبوس هذا ، مشقة كبرى في احتلال بعض المدن البحرية ، كما لاقى من المصريين ، جملة ، ضغطاً شديداً اضطر معه الى الدخول في معارك حامية ، مع جيش مصر الوطني ، سببت له خسائر غير قليلة ، على انه استطاع بالنتيجة ان يحرز انتصاراً كاملاً على هذه القوى جميعها ، وسقطت مصر ثانية في ايدي الرومان .

---

«١» بروبوس هذا غير بروبوس الذي انتحر بعد انهزامه في مصر وقد اصبح فيما بعد امبراطوراً على روما .



## تركيز الدفاع عن المملكة التدمرية

رأت الزباء ان الدفاع عن المملكة التدمرية ، يقتضي تركيزه في انطاكية - مفتاح شمالي الجزيرة العربية في ذلك الوقت - .

فوصلت اليها ، وكلفت عبدوس ان يصد تقدم الرومان . ولكن الامبراطور اوريان - وقد كان يعرف مبلغ بسالة جيوش الزباء - رأى ان لا يدخل في معركة فاصلة ، تجنباً للهزيمة ، رغم كثرة جيوشه وحسن تدريبها . فعهد الى الحيلة « ١ » .

وكانت حيلته أنه تظاهر في احدى المعارك بالانكسار ، والرجوع عن انطاكية ، وأمر جنوده بنصب كمين وراء تلال المدينة وبساتينها .

وظن التدمريون ، أن الرومان هُزموا فعلاً ، فراحوا ، بحماسة جنونية ، متفرقين مشتتين ، يتعقبون الجيش « المنهزم » ، في غير روية ، ولا نظام .

ويخرج جنود الرومان من كمينهم ليتصيدوهم واحداً واحداً ، وفريقاً فريقاً ، دون كبير عناء ، وكانت

« ١ » تدمر . لجان ستاركي . *Palmyre. Jean StarchKy* ص « ٦٠ »



الحسارة جسيمة ، على انها كان يمكن أن تكون اجسم  
وشر عاقبة ، لو لم يدرك عبدوس الحيلة ، فيلمم بقايا جيشه  
ويعود به الى انطاكية .

عاد عبدوس بعد ان أدرك سر الحيلة ، ببقايا جيشه  
الى المدينة ، وعمد الى حيلة يجنب بها نفسه ، شر  
التطويق ، والوقوع في أيدي الرومان أسيراً ، مع من تبقى  
من جنده ، مؤملاً ان ينقل خط الدفاع من انطاكية ، الى مكان  
آخر ، بعد ان انزلت به حيلة اورليان هذا الانكسار .  
عاد الى المدينة ، وهو يظهر بمظهر المنتصر ، وأتى  
برجل البسه ثياباً كتلك التي يلبسها اورليان ، وراح يطوفه  
في المدينة ، زاعماً للناس أن اورليان وقع اسيراً في قبضته .  
حتى اذا اقبل الليل ، انسحب وجيشه من انطاكية ، بغير  
خوضاء .

وهكذا فقد عبدوس الشجاع ، أول مركز للدفاع عن  
المملكة العربية التدمرية ؛ وتراجع الى حمص ، ليجعل منها  
مركزاً جديداً للدفاع .

### رابطة الاخاء القومي قبل رابطة الدين

رأينا فيما سبق ، ان اذينة عامل النصارى معاملة رائعة ،



فدفع عنهم اذى الوثنيين ، وحماهم من كل اعتداء ، وسمح لهم  
باقامة البيع والكنائس ، وممارسة طقوسهم كما يشاؤون ؛ فكان  
لهذا العمل الطيب الجليل ، اثره في نفوس النصارى من  
العرب ، الذين شعروا بان روابط الاخوة في القومية وفي  
الوطن ، تستطيع ، ويجب ان ترتفع فوق الاختلاف في العقائد  
الدينية ، وان وحدة اللغة والوطن والعادات والتقاليد ،  
تفرض الاخلاص للوطن واهليه اخلاصاً مطلقاً ، كما تفرض  
الدفاع عن هذا الوطن ، ضد كل مغتصب او معتد غريب ؛  
وان يكن دينه من دين ابناء هذا الوطن ، المعتدى عليه ، او  
دين الكثرة او القلة فيهم ، على السواء . ولقد وعى هذا  
وعمل به ، امير من امراء الكنيسة : المطران بولس  
الصاموصائي ، مطران انطاكية نفسها ؛ فوقف في تلك  
المحنة ، التي اصابته جيوش تدمير العربية ، موقفاً رائعاً  
عظيماً ، وراح يحرض الناس على الدفاع عن انطاكية ،  
والصمود في وجه الرومان ، وردهم فاشلين خائبين ، الامر  
الذي حمل اورليان ، عند دخوله المدينة على ان يقسو عليه  
وان ينفيه .

ولقد كان المطران بولس الصاموصائي ، على صداقة متينة



مع الزباء ، بالرغم من اختلاف دينها ؛ ولم يمنعها اختلاف الدين ، من التعاضد والتعاون ، للتخلص من المستعمرين .

### حمص خط دفاعي امام تدمر

تراجع عبدوس الى حمص ، وكان عليه ان يقوم بعملين خطيرين ، في وقت واحد بعينه ؛ وباسرع ما يستطيع .  
كان عليه اولا : ان يجمع قوة جديدة تسد الثغرة التي تركتها في جيشه ، معاركه الحاسرة في انطاكية .  
كما كان عليه ثانياً : ان يقيم خط الدفاع ويشرف هو بنفسه على تنظيمه وتحصينه ، بافضل الطرق ، التي عرفها الفن الحربي في ذلك العهد . ولعله كان يدرك ، ان في سقوط حمص ، سها يسدد الى قلب تدمر نفسها ، ومعنى ذلك ، انهيار استقلال المملكة التدمرية ، وعودتها الى احضان الاستعمار الروماني البغيض . . وفي سبيل عرقلة زحف الجيش الروماني ، والحوول بينه وبين حمص ، اطول مدة ممكنة ، امر عبدوس احدى فرق الجيش المختارة ، ان تتأخر في الطريق ، فتشغل الجيش الروماني وتعوقه ، ما استطاعت الى ذلك من سبيل .



وقد ابلت هذه الفرقة بلاء حسناً في اعاقه الرومان عن  
التقدم . ولكنها لم تكن لتستطيع الصمود طويلاً ، لقلة  
عددها ، في جانب عدد الجيوش الرومانية .  
وعند وصول اورليان الى سهل حمص الفسيح ، كان  
عبدوس قد استطاع ان يقيم خطاً دفاعياً ، قوامه ستين الف  
مقاتل .

ويروي « فلافيوس فوبيسكوس *Flavius Vopiseus* »  
ان عبدوساً آخر ، كان الى جانب الزباء في حمص .  
وربما كان زبايوس - او عباس - *Zabbaios* - قائد  
حامية تدمر ، الذي ورد اسمه ، في نقوش ، على احدى  
الاعمدة .

واذا كان هو نفسه ، فهذا يعني ان الزباء ، ارسلت الى  
تدمر ، في طلب الحامية التي يقودها ، والمكلفة بحراسة  
العاصمة « ١ » .

ونستبعد نحن هذا الرأي ، الذي يقول به جان ستاركي ،  
ولا نعتقد ان الزباء ، يبلغ بها الذهول والغفلة ، ان ترسل في  
طلب الفرقة الوحيدة التي تحمي المدينة العاصمة .

---

« ١ » هذا رأي جان ستاركي في كتاب تدمر . ص . ٦١ الحاشية .



امتلاً سهل حمص بالجيش ، وبدأ الفرسان التدمريون  
يلامسون العدو ، بضربات خفيفة لاستفزازه . ولكن  
اورليان ، امر فرقة الفرسان بالتريث ، ومنعها الدخول في  
المعركة ، مكتفياً بالمشاة ، يواجهون المهاجمين التدمريين  
ويشغلونهم ، حتى اذا نال التعب ، من الفرسان والحيول  
التدمريين ، وجه اليهم انطلاقة فرسانه ؛ وهم بعد يحتفظون  
بقواهم ، وقوى جيادهم ، فيصيبون ، ما لا يصيبه التعب  
المنهوك .

وهال « الزباء » - وكانت قد خفت الى حمص ،  
تراقب المعركة عن كثب ، وتبعث في الجنود ، روح  
الاستبسال ، والاستماتة في سبيل صد الرومان عن آخر خط ،  
من خطوط النار الدفاعية عن تدمر - ان ترى كفة  
الرومان ترجح في القتال ، فجمعت مجلس قيادة الحرب ،  
تحكمه في ما تقضي به مصلحة المملكة من تدبير ، فاقر  
المجلس بالاجماع ، ضرورة التراجع الى تدمر ، واتخاذها حصناً  
اخيراً ، بعد ان ذهبت انطاكية ؛ وتزلزل خط حمص  
الدفاعي .



### حصار تدمر

وخرجت الزباء من حمص ؛ وامرت جيوشها بالاسراع الى تدمر ، لتقيم فيها السد الاخير ، في وجه الرومان . وراحت جيوش اورليان تتبعها ، فاطلت على تدمر ، ودانتها بعد اسبوع ، من مسيرة مائة وخمسين كيلو متراً .

والجدير بالذكر ، ان البدو كانوا يشنون على الجيش الروماني ، في الطريق ، غارات كثيرة ، ويعرقلون سيره ، وهذا ما اضطره الى قضاء اسبوع كامل ، للوصول الى تدمر ليفرض عليها الحصار .

وقد كانت الزباء تعتقد أن حصار اورليان لمدينتها ، لن يطول ، وأن نفاد موارثه سيضطره لفك الحصار عنها ، والتراجع الى حمص ، على الأقل . وكانت ترى في هذا الأمر ، ان تم ، فرصة لتهيئة جيش ، والقيام بهجوم صاعق ، بعد ان تكون قوى الأمبراطور الروماني وجيوشه ، قد خارت ، او ضعفت الى حد بعيد .

إلا أن الامور ، كانت تجري بما لا تشتهي الزباء ، وطال حصار تدمر ، والمؤنة لا تنفك تصل الى اورليان ، من حيث



لا تدري .

وفي اثناء الحصار ، أرسل اورليان الى الزباء يؤمنها على حياتها إن هي إستسلمت اليه ، وفتحت ابواب تدمر لجيشه . ولكن أنى للزباء ان تستسلم ، وهي المرأة التي عرفنا ، والملكة الشجاعة الابية القوية الشكيمة والمراس ، التي تعشق الحرية ، ولا تطيق الذل !

كان على اورليان ان يفكر بهذا ، قبل ان يبعث برسالته اليها . فلما جاءه جوابها ، عرف انها ستصمد الى النهاية ، وانها تفضل أن تموت على ان تقع أسيرة بين ايدي الرومان المستعمرين . وبعثت الزباء الى قبائل العرب والأرمن تطلب النجدة ، وشعر اورليان بالامر ، فلم يجد بداً من الاستعانة بالمال ؛ فعمد الى رؤساء القبائل ، واهل النفوذ فيهم ، يصدق عليهم العطاء ، وينذرهم بشر العاقبة ، اذا هم لبوا نداء الزباء ، وتحركوا لتجديتها . ويؤكد لهم ان الزباء ، لا يعينها من امرهم الا ان تتخذهم خطباً لنار حروب توقدها في سبيل عرشها وتاجها ، ليس غير ، حتى اذا ضاقت الحيل بملكة تدمر ، رأت أن تذهب بنفسها الى بلاد فارس ، تطلب نجدة سابور . فركبت لهذا الامر ، هجيناً ، وانطلقت تقطع الفيافي ، حتى كادت



تعبّر نهر الفرات . فأدر كتبها هناك مفرزة من الجنود الرومان ،  
كانت قد أرسلت لتقطع عليها الطريق ، فعادت بها الى  
اورليان ، أسيرة .

كان ذلك في خريف سنة ٢٧٢ ميلادية .  
وبعد ذلك بقليل ، أرغمت تدمر على فتح ابوابها .  
لقد ذاق تدمر ، طعم العز والحرية ، فأبت أن تستسلم ،  
ودافعت عن نفسها دفاع الاعزاء الاحرار ، الى ان تغلبت  
قوى الرومان ، وخُذِل الحق ، ولكن الى حين . .

### الموت للابطال

عاد اورليان الى حمص ، يصحب معه الزباء ، وكبار  
رجال دولتها . ولم ينس ان يحمل معه كنوز الملكة  
و... جواهرها ايضاً .  
وكان الجنود الرومانيون يصرخون في الطريق :  
« الموت للزباء » .

وفي حمص ، قضى اورليان باعدام كبار رجال الدولة  
التدمرية ، الحياة ، ومن بينهم الفيلسوف « لوجيان » .  
أستأذ الملكة .



والفيلسوف لونجان من أصل آرامي أي عربي ؛ وقد  
حاز مكانة كبرى ، عند الزباء ، لجلال قدره ، وغزارة  
علمه ، وعقله الراجح النير .

والتاريخ يذكر أن الفيلسوف ، السيء الحظ ، قد تلقى  
الموت بشجاعة نادرة ؛ كما تلقاه من قبله سقراط . وأن  
اورليان ، القى عليه وزر تصرف الزباء ، متبها إياه بكتابة  
الرسالة التي وجهتها الزباء إليه ، اثناء حصاره لها وتمردها عليه .  
على أن بعض المؤرخين يذكر أن الزباء هي التي ألقت  
تبعة تصرفاتها على لونجان ! .

ونحن نرى أن في هذا تجنباً على شخصية الزباء ، التي  
عرفنا ، وتجاوزاً لحد المنطق ، في ما توحىه نفس الزباء ،  
وشجاعته ، ورجاحة عقلها .

وحسبنا الآن ، أن نفاضل بين ملكين ، أحدهما يحترم  
العلم ، ويقرب رجاله ويستشيرهم ، ويجلهم ؛ والآخر  
يوردهم الموت ، حقداً وتشقياً !

قد يكون ثبت لاورليان ، أن « لونجان » يحمل قسطاً  
من التبعة ، في كتابة تلك الرسالة ، — وعن غير طريق  
« الزباء » — كما نعتقد ، ولكن ليس من المفروض النظر



الى « الزباء » ، انها تحمل قبل غيرها ، التبعة الكبرى في ذلك ،  
وهي الملكة والقائدة وصاحبة الامر والنهي !  
فلماذا لم يعدمها الحياة هي ايضاً ؟ أمن الممكن ان  
يكون حقه على « لونجان » اشد منه على « الزباء » ؟!  
اننا حين نتساءل عن السر ، في موقف اورليان هذا ،  
يبدو لنا هذا السر في احتمالين ، الاول : ان اورليان  
احب ان يذيق « الزباء » ذل الانكسار والاسر ، ويشفي  
غليل نفسه ، بمرآها تتعذب ، في هذا الذل . والثاني : ان  
اورليان خشي ان يكون في اعدامه الحياة للزباء ، الملكة ،  
ما يعجل في ثورة شعب المملكة التدمرية عليه ، ويعطي  
لهذه الثورة ، عنصراً من عناصر القوة الجارحة ، تنطلق في  
جنون العاطفة ، فتنزّل به وبجيشه ، ما يجدر به ، ان يتقيه .

### حريق تدمر

كان أورليان في طريق عودته الى روما ، عندما بلغه  
نبأ ثورة التدمريين ، من جديد ، بقيادة رجل من النبلاء ،  
يدعى « عبسة Absée » ؛ وكانت عبسة من الذين احلّتهم  
الزباء ، المكاة الأولى ، بين مستشاريها . وقد وجد اسمه منقوشاً



على العمود الذي يحمل تمثال الزباء ، وامامه لقب « رئيس » .  
أراد عبسة من ثورته هذه ، أن يؤلب رجال الامبراطورية  
الحاكمين في الشرق ، بعضهم على البعض الآخر . فاتصل بحاكم  
ما بين النهرين ، الروماني ، « مارسولين *Marcellin* » ،  
وفأوضه على ان ينادي بنفسه امبراطوراً على الشرق . ولكن  
مارسولين ، فطن للأمر ، وابلغ نبأ محاولة عبسة ، الى اورليان ،  
الذي كان يجتاز نهر الدانوب بطريقه الى روما .

وما كادت اخبار ثورة التدمريين تصل الى اورليان ،  
حتى قفل عائداً الى الجزيرة العربية ، بطريق انطاكية  
فحمص ، ودخل تدمر دون مقاومة ، ثم أشعل فيها النار ،  
وروع اهلها بقتل الاطفال والشيوخ والنساء (١) .

وهكذا انتهت الى الدمار الفظيع ، عاصمة الثورة على  
الاستعمار في القرن الثالث الميلادي : تدمر . عاصمة المملكة العربية  
التدمرية ، وحاضرة أذينة والزباء ، العظيمين .

ونزلت بالشرق اكبر كارثة حضارية في تاريخه القديم ذاك ،  
باندثار مجهود قرون ثلاثة ، ركّز في بناء تدمر وازدهارها ،  
ونشر حضارتها .

---

(١) *Starchky Palmire. page 64* تدمر . ستارككي . ص ٦٤



وسجل التاريخ على اورليان ، امبراطور روما ،  
جريمة من اكبر الجرائم التي يستطيع ان يرتكبها بشري ، وافظعها !  
ولعل ما يبرر حريق نيرون لروما ، في نفس نيرون ،  
— ان يكن هناك مبرر — انه أراد ان تثني من جديد  
بشكل يتفق مع مكانتها العظيمة ، بين حواضر العالم القديم . . .  
ولكن اورليان ، أحرقت تدمر لتندثر الى الأبد ، حضارة  
أشع وهجها في جبين الشرق والغرب . ونشرت في الناس  
انوار الحرية والعرفان ، طوال مئات من السنين ؛ من اجل  
لا شيء ، سوى تغلب الظلمة على النور ، والعبودية على الحرية ؛  
طواعية لسلطان حقد ، وشفاء لغيليل نفس ، ليس غير .

### السخوية من اورليان

عاد أورليان الى روما بطريق مصر سنة ٢٧٤ ميلادية .  
وكان دخوله اليها يجرّر أذيال الزهو والفخار ، دخول  
الفاحين . وقد وصفه المؤرخون القدماء ، بأنه كان يأمل أن  
تري روما فيه بطلاً عظيماً ، حقق لها انتصاراً عظيماً ،  
لا يشبه اي انتصار آخر .

ولكن روما استقبلته ، شعباً وشيوخاً « *Sénateurs* » ،



بالنقد الساخر ، لتغطسه وزهوه ، بانتصار ، قام على  
وحشية الدمار .

ولعل بعض الشيوخ ، كانوا قد علموا بنياً اعدامه  
لفيلسوف « لونجان » ، فأرادوا أن يسخروا من امبراطور ،  
لا يقيم وزناً للعقل البشري ؛ ذلك ان قتل الملوك للعلماء  
من افطع ما تتصف به الوحشية في انسان !

### نهاية الزباء

لعل الحادثة التي انتهت بها حياة الزباء كانت بطولة  
في ذاتها .

ولست البطولات مقتصرة على الاعمال الحربية ، أو  
الاعمال التحررية حسب ؛ فالبطولات ايضاً في ترفع النفس عن  
الذل والعبودية ، عنوان شرف الانسانية ، في كل زمان .  
لقد وصل الى سمع الزباء ، ان تدمر غابت عن الدنيا الى  
الابد . وان النار قد التهمت اطفالها ونساءها وشيوخها .  
فوقع في نفسها هذا الخبر ، موقع الصخر الضخم من النهر ،  
يحوله عن مجراه ، فيتخذ طريقاً آخر ، قد يكون فيه القناء ،  
للنهر نفسه ؛ واما عن الحزن والوعبة في نفس « الزباء » بما



يوجع ويمض ؛ وراحت تستعرض ماضي حياتها ، وحياة  
شعبها الامين ، في تدمير الغالية العظيمة ، وما شيدته ،  
وشيده له زوجها ، من مجد ضخم ، وهي في حال ،  
لا تملك فيها ، لشعبها ومملكتها ، عوناً ، فضاقت بها الحياة ؛  
وآثرت الموت ، على البقاء في ذل ، فعمدت الى الصوم ،  
تشاطر به شعبها لونا من الوان العذاب ، وينتهي بها الى  
الموت . وهكذا كان . فقد فاضت روحها وهي صائئة ،  
فاستقبلت الموت ، بمثل ما استقبله به شعبها الكريم :  
باباء ورباطة جأش .

وطوى الدهر صفحة مُعطرة منورة ، من صفحات هذا  
الشرق الجليل ، البعيد الغور . لينشر في الوحشية والطفيان  
صفحة « اورليان » ، وما اكثر ما انبتت روما من طغاة .

### اولاد الزباء في روما

حمل « اورليان » اولاد الزباء الى روما ، ثم عمد الى  
ابادتهم قتلاً ، فابادهم . وليس في التاريخ ما يشير الى السبب  
الظاهر ، على الاقل ، الذي حمله على هذه الوحشية ؛ على  
هذا المنكر الكبير الفظيع ، يضيفه الى ما سبق منه ، من



مناكر ؛ ولعل الغريزة الحيوانية في « الانسان الوحش » هي مبعث منكراته ، ووحشيته ، يرتكبها حتى في الآمنين الأبرياء ، في حالي الحرب والسلام على السواء .

### الزبء والتاريخ

قالت العرب ، فيما قالت من امثال : « أعز من الزبء » .

ولعل مثلاً من الامثال ، لم يقم على اسس من الصحة والواقع اكثر من هذا المثل . وقد كانت الزبء ، الى هذا ، رمزاً للاحساس القومي العفوي ، من غير ان تكون القومية معروفة يومذاك ، بمفهومها اللغوي ومدلولها العام ، كما نعرفها اليوم .

لقد كانت عصمتها في نفسها ، رمزاً لسيادة الحسن الانساني ، على الغرائز الحيوانية ، في نفس الانسان ذاته . وكانت ثورتها على الاستعباد والاستعمار قوة ، فيها ضرامية هائلة ، منطلقة ، هي ذلك المد الحير الذي يترفع عن الخوف من جزر ، قد يعقبه ، أو ، لا . ولا شيء اخلد على الدهر ، من امريء يتجسد المثل فيه ،



فيسير في الناس درساً ابدياً في البطولة ، بشق الوانها ..  
وان اعطاء المثل في العطاء ، اعظم قيمة من العطاء  
بذاته ؛ لأنه أعم واشمل ، واثق صلة بالخلود . فان حاتمًا  
— مثلاً — في خلوده الزمني كمعطاء ، اعظم منه في عطائه  
يتجسد فيه اسمى معاني الكرم .

والزباء كمثل سائر ، في عزة النفس ونقاها ، وفي قوة  
الارادة العاقلة ، وحرمة الشخصية الجريئة المتسامية ، اعظم  
منها واعمق اثراً في حياة المجتمع ، على الدهر ، ملكة ،  
في حيزها الزمني المحدود بالعمر ، ولن تجد — مها تحاول ان  
تجد — انساناً ظلمه التاريخ اكثر مما ظلم الزباء الملكة ،  
والزباء الانسان .

فالزباء الملكة ، بطلة قومية ، لها زوايا بارزة في بناء  
التاريخ القومي .

ولكن هذه الزوايا جاءت كالأسس ، يغمرها التراب ،  
ولم تجد من يكشف عن حقيقة ماهيتها ؛ ومبلغ ما فيها  
من قوة ، ومن منعة على الزمن .

والزباء الانسان ، حصن قومي ايضاً ؛ قومي في مفهوم  
الانسان عند القوميين الحقيقيين ، الانسان الذي لا يمكن ، الا ان



يكون قومياً ، ليستطيع ان يكون انساناً .  
ظلمها مؤرخو الرومان واليونان ، في انهم نظروا اليها  
من زاويتهم الخاصة ، فلم يروا فيها غير العدو يقاوم  
مطامعهم في الفتح والسيطرة ؛ وكتبوا تاريخها ليشكل جزءاً  
من تاريخهم هم ؛ دون الالتفات الى تاريخ تدمير ، كوحدة  
غير رومانية ، وحدة عربية ، وان خضعت حيناً للرومان .  
وظلمها مؤرخو العرب فلم يُعنوا باستقصاء تاريخ حياتها  
المليء بجلائل الاعمال ، ولعل مبعث ذلك ، اعتقادهم ان ايجاد  
الجاهلية ، ايجاد باطلة ما تستحق الاهتمام ! .

ومر الزمن ، فانقضت مئات السنين ، والزباء وغير  
الزباء ايضاً ، من اعلام العرب القدامى ، والثائرين فيهم ،  
تلفهم ظلمة الجهل ، او ظلمة الغرض ، في التاريخ ، حتى اذا  
حاول محاول منصف ان يقشع هذه الظلمة ، صدمته  
حجبها ، حجاب بعد حجاب ، وكان لا بد له من الضمود  
- في كثير من الحذر - في وجه ما يلاقيه من عناء ، من  
اجل جلاء الحقيقة ، ينتفع بانوارها قومه ووطنه .  
وقد قمنا بهذه المحاولة ، ما استطعنا الى ذلك من سبيل .  
ولو كانت هذه الحقيقة مجلوة من قبل ، مبسطة في علم .



وفي وعي للاحساس القومي ، فالله اكمل علماً في ما كان  
يمكن ان تبعثه من انوار ، متصلة الاشعاع ، تنير لنا السبيل في  
نضالنا الحاضر ، من اجل وجود عربي متكامل ، يواكب حضارة  
اليوم ، ويغذيها باطيب عناصر الوجود . فان اعظم الحسارة  
نشعر بها نحن . نحن القوميين العرب المؤمنين الذين كتب  
علينا ، ان نحمل فانوس ديوجانوس ، مفتشين عن رجل يحتمل  
من هذه الامة ، مكان القيادة بحق ، فلا نلقاه .

ولكننا على مثل اليقين ، بان الامة التي اطلعت رجالا  
ونساء ، ما يزالون منائر الهدي في طريق الانسانية والحضارة ،  
لن تعدم قبضة من رجال ، ونساء ايضاً ، يمشون بها ، فتمشي  
— ما نشك بذلك ابداً — الى ارفع المراتب الانسانية ،  
وتحقق الوجود العربي ، الذي كادت تطمسه حوافر خيول  
المستعمرين والغزاة .... دباباتهم ايضاً ..

ولسنا بطامعين في اكثر من ان نشعر بشيء من  
الاطمئنان ، الى اتنا في عملنا هذا المتواضع ، قد القينا  
خيلاً من نور ضئيل ، على ظلمات عهد من عهود تاريخنا  
« الجاهلي » نرجو ان يحمل الباحثين العرب ، على ان  
يأتوا في هذا السبيل ، بدفقة غزيرة سخية ، من انوار



محوثهم الموفقة الى الخير ، والى المعرفة المركزة ، بهذا  
التاريخ ان شاء الله ..





### مصادر الكتاب

|               |                |
|---------------|----------------|
| الاعلام       | للزركلي        |
| الكامل        | لابن الاثير    |
| الكامل        | للمبرد         |
| دائرة المعارف | للبستاني       |
| خطط الشام     | لمحمد كرد علي  |
| اعلام النساء  | لعمر رضا كجالة |
| «بالمير» تدمر | لجان ستاركي    |



رواية من اعظم انتاج

الشاعر الالماني الكبير

ليسنك

نقلها عن الألمانية المجاهد الكبير الدكتور امين رويحة

وتصدرها :

دار الحكمة



دار الحكمة تصدر قريباً :

### طريق فلسطين

تأليف الاستاذ علي ابو حيدر

« كنت جندياً في ثورة ١٩٢٥ . ثم قدت فرقة من المجاهدين ، لمحاربة فرنسا المستعمرة ، بعد ذلك بعامين . كنت آمل ان افوز على الاستعمار واخلص بلادتي من اعظم الشرور التي تفرض نفسها عليها . آه ... يا لي من بئس . اعتقلت دون ان احقق مرادي ، واعتقل معي افراد من الفرقة ، وفر الباقون الى خارج البلاد . »

كان صوته بائساً ، ولم تلبث نوبة من سعال حتى خنقته ، فلما هدأت عاد يقول : « وقد عذبني الفرنسيون عذاباً كانت غايته الموت . لكنني لم امت . كنت مؤمناً بحقي في الحياة . جلدوني كثيراً وعلقوني من رجلي . »

ومد يده الى جيبه وتناول منديلاً عليه بقع حمراء ، وضعه على فمه ، وهو فريسة سعال قوي .

بهذا الاسلوب الرائع يتحدث المؤلف الى قرائه في الرواية الجديدة :

### طريق فلسطين



514126916

B12677796



BRARY



BRARY



MAR 1986

DS  
37.7  
B4x  
v.1



